
روايات مصرية للجيب
7
حرب الجواسيس
د. نبيل فاروق
Looloo
www.dvd4arab.com
المغامرة السويدية

حرب الجواسيس

لم يخل العالم ، ولن يخلو أبدًا ، من حرب ما ..

فى مكان ما ..

وزمن ما ..

حروب يتقاتل فيها جنود ، وتتصادم فيها أسلحة ومعدات ، وتسيل معها الدماء أنـــهارًا .

ولكن هناك ، فى كل وقت ، وكل مكان ، حربًـــا أخرى ، قد تبدأ وتنتهى ، دون أن يشعر بـــها سوى أصحابـــها فحسب ..

حرب تحتاج إلى القوة ، والبراعة ، والذكاء ، و ... والمعرفة ..

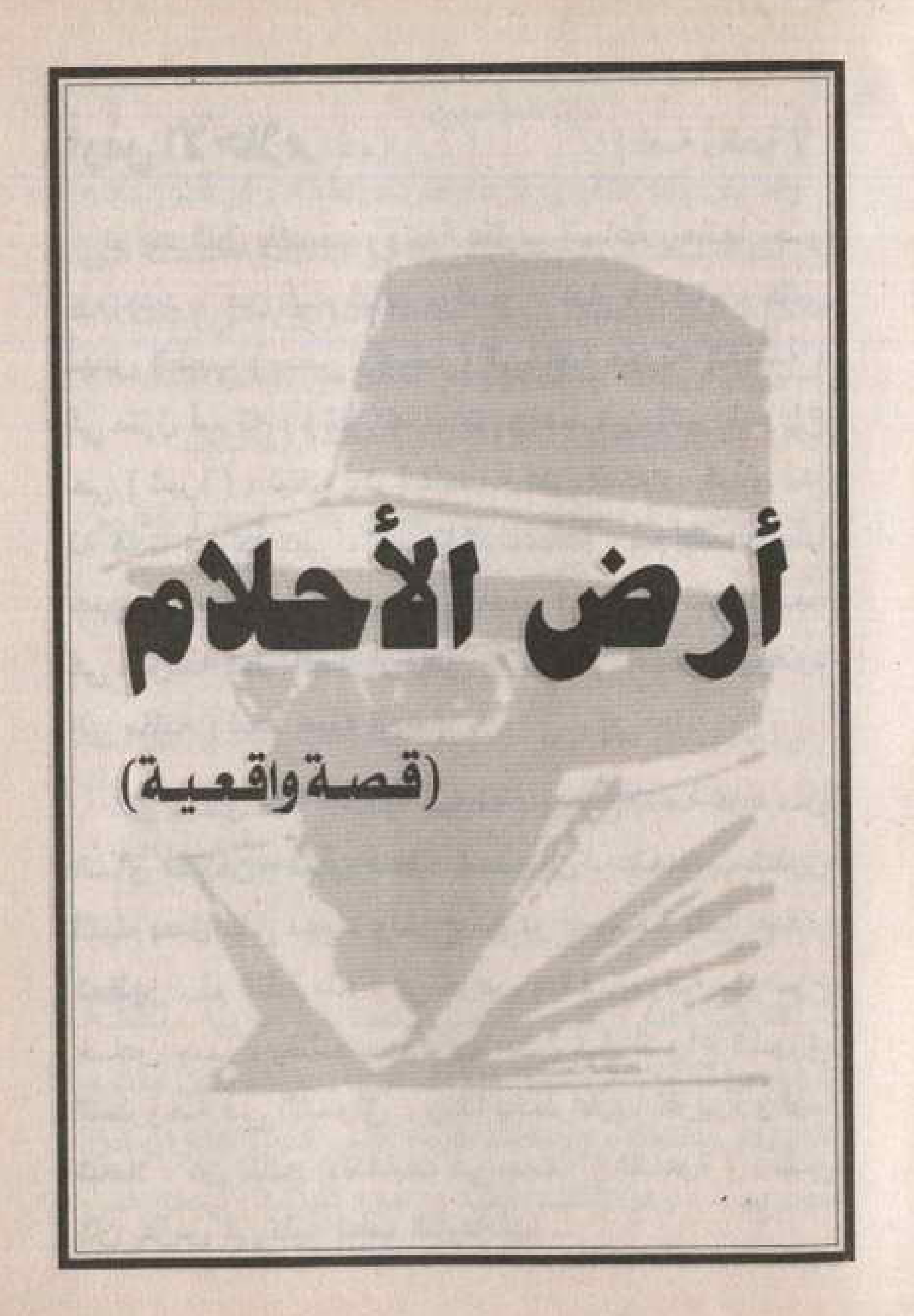
فهى حرب تدور فى عالم سرى وخاص للغاية ..

حرب العقول ..

والجواسيس ..

كل الجواسيس

د. نبيل فاروق



أرض الأحلام .. (قصة واقعية)

لم يكد الليل ينتصف ، وتبدأ عقارب الساعة رحلتها نحو يوم جديد ، من أيام شهر نوفمبر ، عام ١٩٨٨م ، حتى نهض الطبيب (سامى واصف) إلى نافذة حجرته الخاصة ، فى منزل أسرته ، والتى تطل على واحد من أكبر شوارع حى (شبرا) ؛ ليلقى نظرة فاحصة على المكان ، الذى بدا له هادئًا إلى حد كبير ، فى تلك الساعة ، ثم يلتقط نفسًا عميقًا ؛ ليملأ صدره بهواء (مصر) ، الذى لم يتنسمه فى طفولته قط ، قبل أن يغلق النافذة فى إحكام ، ويعود إلى مكتبه ؛ ليبدأ عمله المعتاد ..

كان يرتدى منامة عادية بسيطة ، ويضع أمامه كوبًا من الشاى الساخن ، شأن معظم المصريين ، عندما يستعدون للقيام بعمل ليلى مهم ، وأخرج من درج مكتبه قلمًا عادى المظهر ، ثم التقط منه ، فى حرص بالغ ، ورقة من نوع خاص جدًا ، يختلف جوهريًا عن كل أنواع الورق المطروحة فى الأسواق ، وبدأ يخط عليها تقريرًا وافيًا شاملاً ، عن نتائج الانتخابات فى جامعة (القاهرة) ، التى كان يدرس فى كلية الطب التابعة لها ..

ولم يكن ذلك التقرير جزءًا من دراسته ، أو أمرًا كلفه إياه أحد أساتذته ، وإنما كان تقريرًا خاصًا ، تحدث عن الانتخابات بكل تفاصيلها ، وعن نشاط الأصوليين فى الجامعة ، وأسلوبهم فى إدارة انتخاباتهم ، والتعامل مع طلاب الجامعة ، وردود فعل الجامعيين ، من طلاب وأساتذة وإداريين ..

باختصار ، كان ما يمكن أن نطلق عليه اسم (التقرير الأمنى) ..

وعلى نحو متقن ، يوحى بأنه تدرب طويلاً على إعداده ..

والعجيب أن هذا الأمر قد استغرقه تمامًا ، وشغل حواسه كلها ، وجعله ينهمك حتى النخاع ، حتى انبعث من خلفه فجأة صوت صارم حازم ، لا يخلو من رنة ساخرة قاسية ، يقول :

ـ لا بأس .. سنكتفى بهذا القدر .

اخترقت العبارة أذنى (سامى) كصاعقة كهربية مباغتة عنيفة ، فانطلقت من حلقه شهقة قوية ، وقفز من مقعده على نحو مضحك ، وجحظت عيناه حتى كادتا تقفزان من محجريهما ، وهو يلتفت بكيانه وذعره كليهما ؛ ليحدق فى وجه الرجل القوى الذى يقف خلفه مباشرة ، والذى مد يده

اليمنى ؛ ليقبض على معصمه بأصابع من فولاذ ، فى نفس اللحظة التى التقطت فيها أصابع يده اليسرى التقرير فى خفة ، وهو يواصل بنفس تلك اللهجة الصارمة القاسية ، ذات النبرة الساخرة :

ـ هذه الورقة من نوع خاص .. أليس كذلك ؟!

جحظت عينا (سامى) أكثر وأكثر ، وانهارت ثقته كلها فى أعماقه ..

بل انهارت أعماقه عن آخرها ، وهو يواصل التحديق فى وجه الرجل ، وفى وجوه الرجال الآخرين ، الذين برزوا من خلفه ، ووقفوا عند عتبة الحجرة ، يرمقونه بنظرات صارمة مخيفة ..

وبكل ما تبقى فى كيانه من قوة ، تمتم (سامى) :

ـ ولكن كيف ؟!

كان هذا كل ما استطاع النطق به ، فابتسم الرجل الممسك بمعصمه فى سخرية ، وأشار إلى كوب الشاى الساخن ، قائلاً :

ـ إنك لم تعد هذا الشاى لتشربه .. أليس كذلك ؟!

ولم ينطق (سامى) بحرف واحد ..

لم يستطع أن يفعل ..

لقد انعقد لسانه فى حلقه ، الذى غص بالذعر والهلع والارتياع والذهول ، وهو يتساءل : كيف عرف الرجل هذا ؟!

كيف أدرك أن الورقة ، التى يكتب عليها تقريره ، معالجة على نحو خاص ، بحيث تذوب تمامًا ، وينمحى كل ما عليها ، وتتحول إلى سائل ، إذا ما سكب فوقها قليل من الشاى الساخن ؟!

كيف ؟!

ودون أن ينطق لسانه السؤال ، أتاه الجواب على نحو غير مباشر ، على لسان الرجل نفسه ، عندما أبرز هويته ، قائلاً بلهجة صارمة حازمة ، تلاشت منها النبرة الساخرة تمامًا :

ـ (أ . ع) .. من المخابرات العامة المصرية ..

وهنا انهار (سامى واصف) ..

انهار تمامًا ..

★ ★ ★

البداية أيضًا كانت فى شقة (شبرا) ..

ولكنها لم تكن قريبة ..

كانت أبعد حتى من عمر (سامى) نفسه ..

لقد بدأ الأمر مع والده (يوسف إبراهيم واصف) ، الذى قضى شطرًا من الحياة فى تلك الشقة ، مع زوجته ، التى لم تتوقف لحظة واحدة عن الحلم بأن تهاجر معه إلى أرض الأحلام ، التى سافر إليها شقيقها منذ سنوات طويلة وأرسل منها عشرات الخطابات والصور والكروت ، التى تشير إلى نجاحه ، وإلى الملايين الوهمية ، التى يدعى حصوله عليها هناك ، والتى أشعلت الأمر أكثر وأكثر فى رأسى (يوسف) وزوجته ، وجعلت هدفهما الوحيد هو الهجرة والفرار إلى عالم الأحلام الوردية هذا ..

إلى الولايات المتحدة الأمريكية ..

ولأن السفر لم يكن متاحًا أو سهلاً فى تلك الفترة من الستينات ؛ لجأ الزوجان إلى وسيلة معقدة ، فباعت الزوجة صالونها المذهب ، وباع الزوج كل ما ورثه عن والده ، وحصل الاثنان على تأشيرة سياحية إلى (اليونان) ، وسافرا إليها ضمن وفد سياحى محدود ..

وما أن وطأت أقدامهما أرض اليونان ، حتى تخلف الاثنان عن الفوج السياحى ، وحملا حقائبهما المحدودة ، وجوازى سفرهما ، واستقلا سيارة أجرة إلى السفارة الأمريكية مباشرة ..

وفى السفارة ، قدمت الأم عرضًا مسرحيًا ناجحًا ، فبكت ، وانهارت ، ولطمت خدودها ، وهى تطلب حق اللجوء السياسى إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، مدعية أنها وزوجها مضطهدان فى (مصر) ، لمجرد أنهما مسيحيان ، وأن جيرانهما من المسلمين يضربونهما ويعذبونهما ، و... ، و...

وعلى الرغم من أن موظف السفارة كان يدرك تمامًا أن كل هذا مجرد ادعاء كاذب ، وأن ملايين المسيحيين يعيشون آمنين فى (مصر) ، وتربطهم علاقات ود وصداقة مع جيرانهم وزملائهم من المسلمين ، وأن ما يرويه الزوجان لا يمكن أن يحدث فى مجتمع متسامح كهذا ، إلا أن حالة العداء مع (مصر) آنذاك ، جعلته يمنحهما تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، دون أن يحقق مطلبهما بالحصول على حق اللجوء السياسى إليها ..

ولم تكن تلك التأشيرة مجانية ..

لقد التقى الزوجان بضابط صغير فى المخابرات الأمريكية ، استمع إليهما فى جلسات عديدة طويلة ، وهما يقدمان له تقريرًا شاملاً مفصلاً عن (مصر) ، وعن نبض الشارع ، ومشاعر الجماهير فيها ، يندر أن يقدمه جاسوس محترف يحيا فى (مصر) منذ زمن طويل ..

وبكل التفاصيل ، رويا له كل ما يعرفانه ، وما التقطته عيونهما وآذانهما وكل حواسهما ، منذ وعيا الدنيا ..

آراء الناس ..

مشاعرهم ..

حالة الجنود والعسكريين ..

المواقع العسكرية والسياسية المهمة ، المحيطة بموقع سكنهما ..

وحتى النكات ، والشائعات ، والتعبيرات التى يطلقها الناس على الحكام ، والمسئولين ، ورجال السلطة ..

باختصار ، قدما كل ما لديهما ، وهما يدركان جيدًا أن كل كلمة منه ستستخدم ضد (مصر) ، التى ولدا وعاشا ، وتزوجا فيها ..

قدماه على مذبح الخيانة ؛ ليحصلا مقابله على الإقامة والاستقرار فى المجتمع الجديد ، الذى هاجرا إليه ..

مجتمع الأحلام ..

ولكن الأحلام لم تلبث أن تحطمت بسرعة على صخرة الواقع ، فالشقيق لم يكن مليونيرًا ناجحًا كما ادعى ، وإنما مجرد موظف بسيط فى شركة محدودة ، والحياة لم تكن مشرقة متألقة كما تصورا ، بل كان من الضرورى أن يبذلا عشرة أضعاف الجهد ، الذى كانا يبذلانه فى (مصر) ، للحصول على نفس مستوى المعيشة المتوسط ..

وعندما نقل (يوسف) شكواه إلى ضابط المخابرات الأمريكى ، أخبره الضابط أن الأوضاع فى (أمريكا) تختلف عنها فى (مصر) ، وأن المرء هناك ينبغى أن يبذل جهدًا كبيرًا ؛ ليحظى بحياة مناسبة ، ثم طلب منه أن يندمج فى المجتمع المصرى فى (نيويورك) ، ويتردد عليه ، ويحاول الاستفادة منه ..

وكانت هذه بداية الطريق بالنسبة للمهاجر الجديد (يوسف واصف) ..

وبداية الخيانة أيضًا ..

لقد حصل على عمل فى مكتب يمتلكه مصرى فى (نيويورك) ..

وارتبط بصلة عمل مع ضابط المخابرات الأمريكى ، فراح يمده بأخبار المجتمع المصرى هناك ، وبتفاصيل كل ما يحدث فيه ..

وفى هذا المناخ الملوث ، أنجب (يوسف) ابنيه (سمير) و(سامى) ..

وفى هذا الوسط نشأ الولدان ، وكبرا ، وذابا فى المجتمع الجديد ، ولم يدركا قط أنهما من أصل مصرى ، وجذور عربية ..

بل صار انتماؤهما لدولة واحدة ..

(أمريكا) ..

وعندما بلغ الشابان مرحلة التفتح من عمريهما ، كانت الأحداث تمضى بسرعة فى (مصر) ، على نحو لم يسبق له مثيل ، ولم يتوقعه أو يستنتج حدوثه أحد ، حتى خبراء المخابرات المركزية الأمريكية أنفسهم ..

لقد تم اغتيال الرئيس (السادات) ، وسط العرض العسكرى ، فى ذكرى حرب السادس من أكتوبر ، وأعقبت هذا أحداث عنف

واسعة النطاق ، تنبئ عن نمو قوة جديدة ، وتيار جديد فى قلب المجتمع ، يحتاج إلى دراسته وتحليله ، والغوص فى أعماقه ؛ لمعرفة خباياه ونواياه وأهدافه ..

ومن منطلق هذه الأهداف ، بدأ ضابط المخابرات الأمريكى (نيكولاس إدوارد رينولاس) تلك العملية الجديدة ، مع عميليه الجديدين ، اللذين ينتميان – فعليًا – إلى أصل مصرى ..

مع (سمير) و(سامى) ..

فى البداية ركز (نيكولاس) اهتمامه كله على (سمير) ، الذى تلقى تدريبًا محدودًا ، ثم استخرج كل الأوراق المطلوبة ، ليعود إلى (القاهرة) ، ويدرس فى كلية الطب فيها ، مع هدف محدود ، ألا وهو دراسة الموقف الجامعى ، ونشاط الأصوليين ، وردّ فعل الطلاب تجاهه ..

وعاد (سمير) إلى (القاهرة) ، وإلى شقة (شبرا) بالتحديد ، التى سمحت قوانين الإيجارات للأب (يوسف) بالاحتفاظ بها ، على الرغم من هجرته إلى (أمريكا) ، ما دام يسدد إيجارها بتحويلات بنكية منتظمة ..

واستقبل الجيران (سمير) خير استقبال ، على نحو يثبت كذب ادعاء والديه السابق باضطهادهما ، فقد تعاون معه الجميع ، مسلمون وأقباط ، على فتح الشقة ، وتنظيفها ، وإعدادها للسكنى ، بعد أن ظلت مغلقة لسنوات طوال ، وراحوا

يسألونه عن أحوال والديه فى الغربة ، ويروون له ذكرياتهم معهما ، ويؤكدون له ضرورة أن يلجأ إليهم ، إذا ما احتاج إلى أى شىء ، فى فترة استقراره الأولى فى (مصر) ، فى حين راح هو يثنى على الوطن الأم ، ويؤكد لهم أنه ، وعلى الرغم من رغد العيش فى (أمريكا) ، إلا أنه لم يشعر بالارتياح والانتماء إلا فى (مصر) ، وفى (شبرا) بالتحديد ..

وغنى عن الذكر أنه كان كاذبًا مخادعًا ، فى كل حرف نطق به .

فانتماؤه لم يكن - أبدًا - إلا للولايات المتحدة الأمريكية وحدها ..

والدليل على هذا أنه قام بالمهمة الموكلة إليه بكل الحماس والنشاط والإصرار ، فراح يتابع كل ما يحدث حوله ، ويدرسه ، وينقله أولاً بأول إلى (نيكولاس) ، الذى أمضى فترة طويلة فى (مصر) ، أو يرسله بريديًا إلى عنوان خاص فى (أوروبا) أو شرق (آسيا) ..

وطوال سنوات دراسته فى (مصر) ، لم يتذكر (سمير) أصله المصرى لحظة واحدة ، ولم يشعر بأى حنين إليه ، بل راح يتجسس على (مصر) ، ويرسل كل ما يحصل عليه من معلومات عنها إلى المخابرات المركزية الأمريكية أولاً بأول ..

ثم حان دور (سامى) ..

كان قد بلغ بدوره السن ، الذى يسمح له بالالتحاق بكلية الطب ، فقرر ضابط المخابرات الأمريكى ضمه إلى العملية ، واستدعى شقيقه (سمير) إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، ليعرض الأمر على (سامى) ، الذى وافق على العمل فى هذا المجال دون مناقشة ، وذهب لمقابلة (نيكولاس) ، الذى أخضعه لاختبار على جهاز كشف الكذب ؛ ليطمئن إلى ولائه وانتمائه ، قبل أن يبدأ مرحلة إعداده وتدريبه للقيام بمهمة ، التجسس ..

وكما فعل (سمير) من قبل ، سافر (سامى) إلى (القاهرة) ، والتحق بكلية الطب ، وسار على خطى شقيقه فى درب الخيانة ..

ولكن (سامى) كان يختلف عن (سمير) فى أمرين جوهريين ..

أولهما أنه كان أكثر حماسًا ونشاطًا وإقدامًا فى عمله ..

وثانيهما أنه كان أقل حرصًا ..

كانت لديه قناعة لا متناهية فى أن المصريين لن يرقوا أبدًا لمستوى المخابرات المركزية الأمريكية ، مهما بلغت براعتهم ، وأن أمره لن ينكشف قط ..

وكان يتصور أن السفارة الأمريكية ستتدخل بكل ثقلها ، لو أنه وقع فى قبضة المصريين ، وستضطرهم للإفراج عنه بعد ساعات محدودة من إلقاء القبض عليه ، لو فرض أن هذا حدث ..

ومن منطلق حماسه وثقته ، لم يكتف (سامى) ، بالحصول على المعلومات من الجامعة ، وكتابة التقارير عنها ، وإنما تطوع بالسفر إلى الصعيد ، وأقام هناك بعض الوقت ، ليكتب تقاريره عن حالة المحافظات هناك ، وعن الخلافات الدينية ، والصدام مع أجهزة الأمن وغيرها ..

ولم يعد (سامى) من الصعيد بكومة من التقارير فحسب ، وإنما عاد أيضًا بزوجة صعيدية ناعمة جميلة ، اسمها (فيفيان) ..

ولأنه كان مفرط الثقة فى قدراته وقدرات المخابرات الأمريكية ، لم يحاول (سامى) إخفاء أمر مهمته عن زوجته ، فروى لها الأمر برمته ، واعتبرها مخزنًا لكل أسراره وكاتمة لها ..

ولكن (فيفيان) لم تكن على المستوى المطلوب من الكتمان ، والحفاظ على أسرار مهمة خطيرة كهذه ..

لذا فقد تسربت بعض الكلمات من لسانها ، دون أن تدرى ..

والتقطتها آذان واعية ، ذكية ، مدربة ، و ...

ومصرية ..

والتقطت المخابرات العامة المصرية طرف الخيط ..

وكانت البداية ..

بداية النهاية لعملية التجسس الأمريكية على المجتمع المصرى ، فى ذلك الحين ..

ولأن ثقة (سامى) كانت مفرطة ومبالغة ، فقد انهار تمامًا ، لحظة إلقاء القبض عليه ، وراحت الاعترافات والمعلومات تتدفق من بين شفتيه كالسيل ، حتى إن رجال المخابرات العامة والنيابة العامة ، كانوا يستوقفونه بصعوبة ، لاستيضاح نقطة ما ، أو إعادة سماع بعض ما ألقاه بسرعة بالغة ، وبكلمات مضطربة غير مفهومة ..

ولبعض الوقت ، لم تفارق (سامى) فكرة أن السفارة الأمريكية ستتدخل لإنقاذه والإفراج عنه ، بإيعاز من المخابرات الأمريكية ، التى فعل كل ما فعل من أجلها ..

ولكنه تلقى بعد هذا صدمة جديدة ، وتعلم درسًا قاسيًا فى عالم التجسس ..

فما إن يسقط العميل أو يحترق ، حتى لا تعود له فائدة ، بالنسبة لجهاز المخابرات الذى جنده ، ولن يبذل شخص واحد فيه أقل جهد لإنقاذه ، أو إخراجه من ورطته ..

بل على العكس تمامًا ، سيحاول الجميع التنصل منه ، وإنكار أية علاقة به ..

وهذا ما حدث مع (سامى يوسف إبراهيم واصف) ..

لقد تجاهلته السفارة الأمريكية تمامًا ، وتركته يواجه التحقيق والمحاكمة ، التى بدأت فى الثامن عشر من يونيو ، عام ١٩٨٩م ، واستغرقت يومين فحسب ، لتنتهى بصدور الحكم بمعاقبته هو وشقيقه (سمير) بالأشغال الشاقة لكل منهما ، لمدة عشر سنوات ، مع غرامة قدرها عشرة آلاف دولار ، ومصادرة المضبوطات ..

والمدهش أن والدى (سامى) و(سمير) قد حضرا المحاكمة ، وسمعا الحكم بأذنيهما ، وأدركا فى تلك اللحظة فقط أن الحلم الذى بذلا كل ما بذلا من أجله ، لم يكن فى واقع الأمر حلمًا ورديًا كما تصورا ..

لقد كان كابوسًا ..

كابوسًا رهيبًا ..

للغاية .

* * *

مذكرات

7

رجل مخابرات

ازدواج

مذكرات رجل مخابرات

أنا رجل مخابرات ..

واحد من آلاف ، فى كل أنحاء الأرض ، ينتمون إلى عالم خاص ..

خاص جدًا

عالم سرى ، غامض ، لا يمكنك أن تتجاوز الأسوار المحيطة به قط ..

لا يهم من أنا ..

ما جنسيتى ..

أو إلى أية دولة أنتمى ..

فالقواعد واحدة ، فى كل الأحوال ..

القواعد اللازمة لتصنع رجل مخابرات ..

رجل يمكنه أن يصنع من نفسه درعًا ، لحماية دولة بأكملها ..

إذا ما استلزم الأمر ..

ولا تتصوَّر أن مذكراتى هذه قد تصنع منك ذلك الرجل ..

فمهما حوت ، لن تتجاوز كونها مجرَّد كلمات ..

مجرَّد مذكرات رجل ..

رجل مخابرات .

٧ ـ ازدواج ..

كل شىء سار وفقًا للخطة ، بمنتهى الدقة والإحكام ..

لقد أحكمنا حصار الجاسوس ، على نحو لم يحدث من قبل ..

كل مكان تطأه قدماه ، كان ينقل إلينا أدق أدق أسراره ، طوال الوقت ..

منزله ..

مكتبه ..

سيارته ..

وحتى ناديه الخاص ..

كل شىء أصبح مسجلاً ، بالصوت والصورة ، على نحو جعل حياته كلها ، بالنسبة لنا ، أشبه بكتاب كبير مفتوح ..

وعلى الرغم من هذا ، لم يقع فى يدنا دليل إدانته المنشود ..

لقد تسلَّل بعض عملائنا إلى أماكنه ، وقاموا بتفتيشها ، بمنتهى الدقة ، وتحت إشراف قسم تنظيف خاص .

وقسم التنظيف هذا ، لمن لا يعرفون ، هو القسم المسئول عن فحص كل مكان تمتد إليه أصابعنا ، بالتفتيش والتنقيب ، قبل أن ندلف إليه ، أو حتى نمسّه ، وبعد أن ننهى عملنا بشأنه ..

والعاملون فى هذا القسم محترفون ، ومتخصصون فى كشف كل وسائل الخداع ، التى يمكن أن يستخدمها الجاسوس ، لحماية أسراره وأدواته ، وكشف أية محاولة للعبث بها ..

ومهما بلغت براعة الجاسوس ، فى هذا المضمار ، فهم يكشفون وسائله ..

وينتبهون إليها ..

ويجيدون التعامل معها .

بمنتهى السرعة ..

ومنتهى الدقة ..

وبعد الانتهاء من فحص كل ما نريد ، ودس كل ما نرغب ، فى أى مكان نشاء ، تصبح مهمتهم هى إخفاء ما فعلناه ، وإعادة كل شىء إلى ما كان عليه وأيضًا بمنتهى الدقة والسرعة ..

وفى هذه العملية بالذات ، قام رجال قسم التنظيف بواجبهم خير قيام ، فى منزل الجاسوس ومكتبه ، وفتحوا أمامنا الطريق ؛ لكشف كل ما يخفيه فيهما ، وكاد كل شىء ينتهى على خير ما يرام ..

لولا ما حدث ..

فبعد أن أنهينا عملنا ، وأتممنا مهمتنا ، وكنا نستعد للانصراف ، وعلى الرغم من حذر كل أفراد الفريق ، وعنايتهم الفائقة ، فقد أحدنا توازنه بغتة ، وكاد يسقط أرضًا ؛ فامتدت يده بحركة غريزية ، للتشبُّث بأى شىء ، و ....

وارتطمت يده بإناء زهور فخارى أنيق ..

ووثب آخر بكل قوته ، محاولاً إنقاذ الإناء ..

ولكن المسافة ، التى تفصله عنه ، كانت كبيرة ..

بل أكبر مما ينبغى ..

وسقط إناء الزهور ..

واصطدم بالأرض ..

وتحطَّم ..

وهنا ، أصبحنا أمام مشكلة عويصة للغاية ..

فعلى الرغم من كل حذرنا ، وكل ما فعله خبراء قسم التنظيف ، قبلنا وبعدنا ، ها نحن أولاء نغادر ، تاركين خلفنا دليلاً قويًا واضحًا ، على أننا كنا هنا إناء زهور ثمين محطّم ..

وهبط علينا جميعًا وجوم محبط ، ونحن نحدق فى الإناء ، ونحاول البحث عن كل الاحتمالات الممكنة ، و ...

« لا بأس .. انصرفوا أنتم ، واتركوا الأمر لنا .. »

قالها مسئول مجموعة التنظيف فى حزم وثقة ، جعلانى أسأله فى حيرة قلقة متوترة :

ـ وكيف سيمكنكم التعامل مع الأمر ؟!

أدهشنى أن ابتسم فى هدوء شديد ، وهو يربّت على كتفى ، قائلاً :

ـ سنتعامل مع الموقف .. اطمئن ..

ووفقًا لنظم العمل ، كان من الخطأ أن أضيع الوقت فى مناقشة الموقف مع المسئول الرئيسى عنه ..

وكان من الضرورى أن أنصرف مع فريقى ..

وهذا ما فعلته ..

ولكن عقلى لم يهدأ أبدًا ..

فطوال ما تبقَّى من الليل ، لم يغمض لى جفن لحظة واحدة ، وأنا أبحث عن حل لهذا المأزق ، وأدير الأمر فى رأسى مرات ، ومرات ، ومرات ..

وفى الصباح المبكّر ، تصوّرت أننى أوّل من وصل إلى مكتبه ، إلا أننى فوجئت بعريض المنكبين أمامى ، مع ابتسامته المرحة الكبيرة ، وهو يهتف بصوته الجهورى :

ـ عيناك المنتفختان تشيان بسهاد طويل .. أليس كذلك ؟!

أجبته بالإيجاب ، واندفعت على الرغم منى ، أروى له الموقف كله ، وأشرح له مدى توترى وقلقى ، وحيرتى ، و ....

وفى رصانة شديدة ، قاطعنى هو ، قائلاً :

ـ ما تفعله خطأ كبير يا صديقى .. إنهم محترفون مثلك .. أنت أديت واجبك ، وهم سيؤدون واجبهم كما ينبغى ، ولو إنك قضيت ليلتك ساهرًا مسهدًا ، مع كل مشكلة تخص خبيرًا آخر ، فسينهار عقلك تمامًا ، قبل أن تبلغ مهمتك الأولى منتصفها ..

سألته فى اهتمام شديد :

ـ هل تعتقد بالفعل أنهم سيعالجون الموقف ؟!

هزَّ كتفيه العريضين ، مجيبًا :

ـ ليست لدى ذرة واحدة من الشك .

سألته فى لهفة :

ـ وكيف سيفعلونها ؟!

أجاب فى سرعة :

ـ سيجدون وسيلة ما .

ثم أضاف فى صرامة ، تخالف طبيعته تمامًا .

ـ إنهم محترفون .

وعلى الرغم من أن عبارته لم تضف جوابًا شافيًا لحيرتى ، إلا أن الحزم الذى نطقها به ، جعلنى أهدأ تمامًا ، وأشكره بشدة ، ثم أجرى اتصالاً بوجه القنفذ ؛ لأضع معه اللمسات الأخيرة للعملية .

وبابتسامته المرحة ، التى صرت أعشقها ، نهض عريض المنكبين ، قائلاً :

ـ عظيم .. ها أنتذا تتحولّ إلى محترف حقيقى .

ولا يمكنكم أن تتصوَّروا كم أسعدتنى عبارته ، وأمتعتنى ، وبثَّت فى عروقى المزيد والمزيد ، من الثقة والقوة ..

وفى اجتماع المجموعة ، رحنا نناقش كيفية وموعد إلقاء القبض على الجاسوس ، والوسيلة التى سنتعامل بها معه ، بعد أن تكتمل الأدلة ، ويسقط فى قبضتنا ، و ....

وفى نهاية الاجتماع ، ملت على أذن وجه القنفذ ، أسأله هامسًا :

ـ هل تدرى ما الذى فعلوه أمس ، بشأن إناء الزهور المحطَّم ؟!

مال نحوى بدوره ، وهمس بكل رصانته المعهودة :

ـ لقد حطموا نافذة المطبخ من الخارج ، وألقوا عبرها قطًا ضالاً إلى داخل الشقة .

وانتفض كيانى كله ، بمنتهى الدهشة والانبهار !!

يا له من حل بسيط ورائع !!

قط ضال ، حطَّم نافذة المطبخ ، وتسلَّل من باقى قضبانها إلى الداخل ، هو التفسير المنطقى والمقبول ، والبعيد تمامًا عن الشكوك ؛ لتحطم الإناء داخل المكان !!

عبقرية حقيقية ..

واحتراف حقيقى !

لقد كان عريض المنكبين على حق ..

إنهم محترفون !

المهم خطتنا تواصلت لأسبوع آخر ، قبل أن تجتمع لدينا كل الأدلة التى نحتاجها ؛ لإنهاء العملية ، وإلقاء القبض على الجاسوس ..

وفى اليوم الموعود ، حاصرنا منزله ، واتخذنا مواقعنا ، بمنتهى الدقة والحذر ، وانتظرنا حتى بدأت أجهزتنا فى رصد حالة بث لاسلكى ..

ثم انقضضنا على المنزل ..

وكان من المستحيل أن ينكر الجاسوس التهمة ..

لقد فوجئ بنا نحيط به من كل جانب ، وهو يجلس أمام جهاز الاتصال اللاسلكى ، وفى يده كتاب الشفرة ..

وبسرعة ، كنا نضع أيدينا أمامه ، على كل ما يخفيه ..

كل أدوات التجسُّس ..

ومخابئ المعلومات ..

كل شىء ..

وانهار الجاسوس تمامًا أمام أسرته ، وأعلن رغبته فى الاعتراف ..

والتعاون ..

وهنا استعدت حوارى مع عريض المنكبين ، عندما سألنى عن أفضل ما يمكننى أن أفعله بعد أن يقع الجاسوس فى قبضتى ..

« أن تنقل ولاءه إليك .. »

جوابه يومها أصابنى بدهشة مستنكرة ، وجعلنى أقول ، فى شىء من الغضب والتوتر :

- أى ولاء هذا ؟! إنه مجرَّد جاسوس خائن لوطنه !

أشار بسبَّابته فى مرح ، وهو يقول :

- لكنه مازال مواطنًا ، ودوافع تجنيده لم تكن أبدًا كراهية هذا الوطن .

لم أفهم يومئذ ما يعنيه ، فسألته فى توتر :

ـ ما الذى تعنيه بالضبط ؟!

مال عندئذ نحوى ، وهو يسألنى فى شىء من المرح :

ـ هل سمعت من قبل عن (الجاسوس المزدوج) ؟!

أجبته فى اهتمام :

ـ بالطبع .. إنه الجاسوس مزدوج الانتماء ، الذى يعمل لحساب جهتين ، فى آن واحد .

هزّ رأسه نفيًا ، وهو يقول ، بنفس الابتسامة المرحة :

ـ خطأ يا صديقى .. لا يوجد فى الوجود كله شخص يعانى من حالة ازدواج فى الانتماء .. كل شخص ينتمى حتمًا لجهة واحدة ، أو عقيدة واحدة ، أو وطن واحد .. أما الجاسوس المزدوج فهو شخص يعمل لحساب جهتين ، تتصورّ كل منهما ، أنه ينتمى إليها ، ولكن الواقع أنه ينتمى لجهة واحدة منها ؛ تساعده وتعاونه ، بكل رجالها وخبرائها ، لخداع الجهة الثانية ، ودفعها إلى الاقتناع بولائه وإخلاصه لها ..

كان التعريف منطقيًا قويًا ، حتى إننى تراجعت فى انبهار ، مغمغمًا :

ـ هذا صحيح .

هزّ كتفيه العريضين ، قائلاً :

ـ ومنطقى أيضًا ، فلا يمكنك أن تتصورّ لاعبًا واحدًا ، مهما بلغت مهارته ، ينزل إلى ملعب كرة القدم مثلاً ؛ لينازل فريقين قويين ، بكافة طاقميهما ، ثم ينجح فى هزيمتهما معًا .

ابتسمت ، مغمغمًا :

ـ بالتأكيد .

وهنا اتسعت ابتسامته المرحة ، وهو يعتدل ؛ ليبدو أكثر قوة وأعلى قامة ، وهو يقول :

ـ اتخذ قرارك من هذا المنطلق إذن .. سل نفسك .. ما الأكثر فائدة لوطنك .. هذا هو المعيار الوحيد .

استعدت هذا الحوار كله ، وأنا أواجه ذلك الجاسوس ، الذى بدا بائسًا منهارًا ، ثم شددت قامتى ، وأنا أسأله فى قوة :

ـ ترُى ألديك استعداد للتكفير عن جريمتك ، فى حق وطنك ومواطنيك ؟!

هتف ، كالغريق الذى يتمسك بآخر قشة للنجاة :

ـ سأفعل كل ما تطلبونه منى .

وانعقد حاجباى فى صرامة ، وأنا أتطلّع إلى عينيه مباشرة ، وذهنى يرسم ملامح الجولة التالية ..

فمنذ هذه اللحظة ، بدأت اللعبة تتخذ أبعادًا جديدة ..

وخطيرة ..

إلى أقصى حد ..

* * *

تابع فى الكتب القادمة

طموح

(من قصص الصراع العربى الإسرائيلى)

طموح .. (من قصص الصراع المصرى الإسرائيلى)

فجأة ، وقعت نكسة يونيو ١٩٦٧م ..

نعم .. فجأة ، فكل شيء كان يسير على ما يرام ، فى نظر الجميع .. الشعب ، والصحافة ، والجيش ، وحتى القيادة السياسية والعسكرية ..

الجيش اكتمل تسليحه ، والتصريحات السياسية تزيد الصيف سخونة وحرارة ، وتنقل اشتعاله إلى حماس الجميع ودمائهم ..

لذا فقد جاءت الهزيمة قاسية ، مريرة ، مؤلمة ، عصفت بأحلام الجميع وحماسهم ، ليس فى (مصر) وحدها ، ولكن فى الوطن العربى كله ..

وبالذات فى قلب (عبد الله أبو ندا) ..

و(عبد الله) شاب عربى ، من مواليد (القدس) ، فى الخامس عشر من سبتمبر ١٩٤٧م ، قضى السنوات الأولى من عمره ودراسته فى (القدس) ، حتى الرابع من إبريل ، عام ١٩٦٧م ، عندما حصل على جواز السفر رقم (٥٩٠٣٦٧) ، من دائرة الأمن العام فى (القدس) ؛ ليسافر إلى (القاهرة) ، ويتلقى علومه فى مدرسة (مصر الجديدة) الثانوية ، ومعهد الاتصالات اللاسلكى ، كما كان يتمنى منذ حداثته ..

وقبل أن يبدأ العام الدراسى بالفعل ، حدثت النكسة ، وسقطت (القدس) فى يد العدو الإسرائيلى ، الذى أخضعها للحكم العسكرى ، وفرض عليها سطوته وسيطرته ، مستخدمًا قسوة وصرامة لا مثيل لهما ؛ ليجبر سكانها على قبول ما أسماه بالواقع الجديد ، ويخضعهم للهيمنة الإسرائيلية ، مهما كانت دياناتهم ..

وكأى عربى ، شعر (عبد الله) بالمرارة واليأس ، وسجن نفسه اختياريًا ، لمدة أسبوع كامل ، فى الشقة الصغيرة ، التى استأجرها فى قلب (مصر الجديدة) ، وعقله يجمع ويطرح ، ويضرب عشرات الاحتمالات والمخاوف ، ببعضها ..

كان ما يحدث يوجه ضربة قاسية إلى كيانه ووجوده .. وطموحه ..

ففى الأيام الأولى ، لم يكن يدرى كيف ستسير الأمور ، بعد الاحتلال الإسرائيلى ؟!

هل سيواصل والده إرسال المصروفات الدراسية والمعيشية إليه ؟!

وهل سيسمح الإسرائيليون بحدوث مثل تلك الاتصالات والتحويلات ؟!

بل ، هل سيمكنه الاستمرار فى دراسته ، وتحقيق طموحه ، الذى يحلم به ؛ منذ حداثته وصباه ؟!

هل .. وهل .. وهل .. وهل ؟!

عشرات الأسئلة راحت تفترس خلايا مخه الرمادية بلا رحمة ، طوال ذلك الأسبوع ، حتى اتصل به والده من (القدس) بوسيلة ما ، وطمأنه إلى أن كل شىء سيسير كالمعتاد ، وأنه سيواصل إرسال المصروفات إليه ، على النحو نفسه ؛ ليكمل دراسته ، ويحقق طموحاته العديدة ..

عندئذ فقط ، انبسطت أسارير (عبد الله) ، وغادر سجنه الاختيارى ، وعاد إلى عالمه الخارجي ؛ ليتابع بنفسه تطورات الموقف ، بعد أن هدأت الأمور نسبيًّا ، واستوعب المصريون النكسة ، وطرحوا الشعور بالهزيمة خلف ظهورهم ، وراحوا يتطلعون فى لهفة إلى القائد ، ويتساءلون عما سيفعله لاستكمال المسيرة ، وإعادة بناء الجيش ، واستعادة الأرض السليبة ..

ومع مرور الأيام ، لم يعد (عبد الله) يبالى بالموقف كله ، ولم يعد ينشغل سوى بطموحه فحسب ، ولا يشغله سوى موعد وصول المصروفات ، والبحث عن أماكن جديدة للهو والعبث ، فى ليل (القاهرة) ، وعن وسيلة للحصول على موارد جديدة ؛ للإنفاق على هذا اللهو ، الذى يستهلك كل موارده المحدودة تقريبًا ..

وبالنسبة للنقطة الأخيرة بالذات ، لم يكن يعنيه كثيرًا ما إذا كانت تلك الموارد الجديدة من مصدر شريف أو غير شريف ..

المهم أن يحصل عليها فحسب ..

والعجيب أن كل هذا لم يمح طموحه ، أو يضعه جانبًا ؛ فقد ظلّ يسعى للحصول على شهادته ، بعد أن أضاف هدفًا جديدًا لسلسلة طموحاته ..

أن يحصل على المال ..

الكثير من المال ..

ولكن الوسائل سواء الشريفة أو غير الشريفة ، لم تتوفر له ، طوال أكثر من عام كامل ، قضاه فى (القاهرة) ، قبل أن يعود إلى (القدس) ، فى إجازة صيف ١٩٦٩م ..

لم تكن تلك العودة تسعده أو ترضيه ، بعد أن اعتاد حياة الانطلاق والانفلات والصخب ، إلا أنه كان مضطرًا لطاعة والده ، وقضاء بعض الوقت مع أسرته فى (القدس) ؛ حتى لا يحوز غضبهم ، ويفقد تمويلهم المستمر لحياته فى (القاهرة) ، التى بات يحلم بالعودة إليها ، وقضاء أجمل أيامه فيها مرة أخرى ..

وعندما حانت لحظة العودة ، التى انتظرها بمنتهى اللهفة ، ارتطم بمفاجأة مزعجة للغاية ..

فمع القيود والتعقيدات ، التى فرضها الإسرائيليون ، لم يستطع (عبد الله) الحصول على إذن بالسفر إلى (القاهرة) ..

وكان هذا لطمة عنيفة لطموحه ، وصدمة قاسية لأحلامه ، اختلّ لها توازنه ، وتدفقت بسببها دماء الذعر والهلع فى عروقه ، وجعلته يتذكر ضابطًا إسرائيليًا من أصل عربى ، يُدعى (أبو إبراهيم) ، التقى به ذات مرة فى محل لإصلاح أجهزة التلفاز ، فى (رام الله) ، وصور له القلق أن ذلك الضابط الإسرائيلى يحمل فى يده كل مفاتيح الحل ، ووسائل عودته إلى طموحاته الراقدة فى القاهرة ، فتوجه على الفور إلى (رام الله) ، وراح يبحث عن الضابط الإسرائيلى ، حتى فوجئ بأنه قد انتقل إلى (القدس) ، فعاد إليها بأقصى سرعة ، وذهب فور وصوله لمقابلة (أبى إبراهيم) ، متسترًا بالظلمة ، حتى لا يلمحه أحد رفاقه أو أقاربه ، الذين يجدون فى الاتصال بالإسرائيليين الخيانة ..

كل الخيانة ..

وكم أدهشه أن استقبله الإسرائيلى بحرارة ، بعد أن تذكره

فور رؤيته ، بل ودعاه لتناول مشروب ساخن ، وهو يسأله عن أحواله ، وعن السبب الذى دعاه لزيارته ، فى مثل هذه الساعة ..

وبمنتهى اللهفة ، عرض عليه (عبد الله) مشكلته ، وذكره بوعده القديم بمساعدته عند الحاجة ، وطلب منه السعى لمنحه تصريحًا بالسفر إلى (القاهرة) ..

ولدقيقة كاملة تقريبًا ، ظلّ (أبو إبراهيم) يتطلع إليه فى صمت وتفكير عميقين ، وهو يشبك أصابعه أمام وجهه ، ثم لم يلبث أن تراجع فى مقعده ، ورسم على شفتيه ابتسامة غامضة ، وهو يقول :

- مطلبك ليس هينًا يا (عبد الله) .

امتقع وجه الشاب ، وبدت عليه الصدمة ، وهو يحدق فى وجه الإسرائيلى ، الذى استدرك فى سرعة :

- ولكننى أستطيع مساعدتك .

هتف (عبد الله) فى لهفة :

- حقًّا ؟!

أكد له (أبو إبراهيم) قدرته على استخراج تصريح السفر اللازم ، ولكنه طلب منه إمهاله إلى اليوم التالى لتدبر الأمر ..

وفى الموعد الذى حدده الضابط الإسرائيلى ، فى اليوم التالى ، كان (عبد الله) يقف أمام مكتبه ، ووجهه كله يحمل دلالات اللهفة والترقب ..

ولكن الإسرائيلى اعتذر عن عدم استطاعته الحصول على التصريح ، ثم طلب منه العودة إليه فى اليوم التالى ..

وطوال ستة أيام كاملة ، كان الإسرائيلى يقضى وقتًا طويلاً مع (عبد الله) ، يسأله فيه عن حياته ، وعن الأوضاع فى (مصر) ، وتفاعل سكانها مع الهزيمة ..

وفى اليوم السابع ، كان هناك ضابط إسرائيلى آخر ، بصحبة (أبى إبراهيم) .. يُدعى (أبو سمير) ..

ودار الحوار بين الثلاثة ، حول النقاط نفسها ..

(مصر) ، وأحوالها ، وما يدور فيها ..

ثم ، وفى اليوم التالى مباشرة ، أعلن (أبو سمير) أنه قد حصل على تصريح السفر ..

وقفز (عبد الله) من مقعده فى سعادة غامرة ، وفى لهفة ليختطف التصريح ، إلا أن (أبا سمير) استوقفه فى صرامة ، وهو يبعد التصريح عن يده ، قائلاً :

ـ هناك شروط لحصولك على التصريح .

جف حلق الشاب ، وهو يسأله :

ـ وما هى ؟!

وجاء العرض واضحًا صريحًا مباشرًا ..

وربما أكثر مما ينبغى ..

فشرط الحصول على تصريح السفر ، هو أن يتعاون مع المخابرات الإسرائيلية ، فى جمع كل المعلومات الممكنة عن (مصر) ، وفى مقابل هذا سيتم منحه تصاريح السفر بصفة دورية ، كما سيتم الإنفاق على مصروفات دراسته ، بالإضافة إلى مكافأة مجزية ، مع كل معلومة جديدة يحصل عليها ..

ولا أحد يدرى كم استغرق الشاب فى دراسة هذا العرض ، ولا ما الذى دار فى ذهنه لحظتها ، أو خلال الساعات التالية ..

ولكنه وافق فى النهاية ..

وبدأ مرحلة السقوط ، فى بئر الخيانة ..

وطوال الأيام التالية ، وفى سرية تامة ، تدرب (عبد الله) ، لأربع ساعات يوميًا على التمييز بين الأسلحة المختلفة ،

والكتابة بالحبر السرى ، ورسم الخرائط الميدانية ، وجمع المعلومات ..

ولقد طلب منه (أبو سمير) أن يبدأ كل رسائله بالرقم (١٤٣) ، وأن يوقعها باسم (فرحان) ، وهو اسمه الكودى ، ثم يرسلها إلى شخص يدعى (رمزى حسن) ، فى (سكوتلندا) ، حفظ عنوانه عن ظهر قلب ..

أما رسائل الإسرائيليين إليه ، فستبدأ برقم (٢٤) أو (٣٧) ، وإلا فعليه أن يوقف كل نشاطاته ، ويسعى لمغادرة (القاهرة) بأقصى سرعة ..

وسافر (عبد الله) إلى (القاهرة) ، وهو يحمل ، إلى جوار طموحه المتجدد ، قائمة من التعليمات غير المكتوبة ، التى أصبح يحفظها عن ظهر قلب ، من كثرة ما رددها (أبو سمير) على أذنيه ..

ملاحظة التحركات العسكرية فى (القاهرة) ، والسفر إلى (الإسكندرية) كل حين وآخر ، مستخدمًا الطرق الزراعية والصحراوية ، وزيارة منطقتى (حلوان) و(المقطم) ، والتجول كثيرًا فى (العباسية) ، وزيارة مدينة (المنصورة) ، وتدوين مشاهداته بمنتهى الدقة ، بعد كل أمر من هذه الأمور ..

وحتى وصول (عبد الله) إلى (القاهرة) ، واستقراره فيها ، كانت أمامه فرصة للتراجع عن كل هذا ، وإبلاغ المخابرات المصرية بالأمر كله ، والتعاون معهم ..

ولكنه لم يفعل ..

لقد وضع نفسه عند مفترق الطرق ، ثم اختار بإرادته طريق الخيانة ..

وبلا تردد ..

ومنذ اليوم الأول ، بدأ (عبد الله) فى تنفيذ كل ما أسنده إليه الإسرائيليون ، فتجول فى المناطق العسكرية فى (القاهرة) ، وجمع كل المعلومات الممكنة ، وسافر إلى (الإسكندرية) ، و(المنصورة) ..

وبدا له الأمر سهلاً بسيطًا ؛ فكل ما عليه هو أن يفتح عينيه عن آخرهما ، ويشاهد كل ما يحدث ، ويتحدث مع العشرات والعشرات من المصريين ، ثم يجمع كل ما لديه ، ويرسله إلى الإسرائيليين ؛ ليحصل على المكافآت والأموال ، التى يتلهف لإنفاقها فى صولاته وجولاته الليلية ..

واستقبل الإسرائيليون تلك المعلومات فى لهفة واهتمام ،

وراحوا يدرسونها ، ويراجعونها على ما لديهم ، حتى تأكدوا من أن الشاب يبذل جهدًا حقيقيًا فى عمله ، وأنه يمثل لهم الآن أهمية كبيرة ..

لذا كان من الضرورى أن يتم تطوير العملية ..

وفى الزيارة التالية لمدينة (القدس) ، التقى الشاب بضابط المخابرات الإسرائيلى ، الذى استقبله فى حرارة ، وأبلغه أنهم يشعرون بالارتياح ، لما يرسله إليهم من معلومات ؛ وأنهم لهذا سيضاعفون مكافآته ..

وعندما تهللت أسارير الشاب ، وتألقت عيناه فى لهفة وشراهة ، مال (أبو سمير) نحوه ، قائلاً :

- ولكن هذا يحتاج إلى بعض الجهد منك .

بهت الشاب ، وهو يهتف فى قلق :

- ولكننى أبذل قصارى جهدى بالفعل .

أجابه (أبو سمير) :

- نحن نعلم هذا بالطبع ، ولكنك تفتقر إلى الخبرة والدراسة اللازمتين ؛ لذا فلقد أعددنا لك برنامجًا تدريبيًا خاصًا ؛ لرفع كفاءتك ، والانتقال إلى مرحلة جديدة من العمل .

لم يشعر (عبد الله) بالارتياح ، إزاء هذا البرنامج الجديد ، الذى سيلتهم وقته كله ، ولكنه لم يستطع الاعتراض ، خشية أن يفقد المكافأة الجديدة ..

وخضع (عبد الله) للبرنامج التدريبى الجديد ، الذى تركز كله حول نقطتين رئيسيتين .. أولهما كيفية إرسال واستقبال الرسائل الشفرية اللاسلكية ، وثانيهما ، وهو الأكثر أهمية : وسيلة تجنيد آخرين للعمل معه ..

وفى نهاية البرنامج الأخير ، مال (أبو سمير) نحوه ، قائلاً فى حزم :

- تذكر جيدًا أن تنتقى من تسعى لتجنيدهم من الفئة متوسطة الحال ، وبالذات أولئك الذين يعانون من أزمات مالية ، فالمصريون لا يترددون فى بيع أى شىء مقابل المال .

غرس (عبد الله) تلك العبارة الأخيرة فى ذهنه ، وظل يرددها طوال الوقت ، حتى عاد إلى شقته فى (القاهرة) ، وقد تضاعف طموحه ، مع تضاعف مكافآته ، واهتمام الإسرائيليين بدوره فى (مصر) ..

وفى هذه المرة ، راح (عبد الله) يبحث فيمن حوله عمن يصلح للتجنيد ، واتبع القاعدة نفسها ، التى لقنه إياها (أبو سمير) ..

شخص متوسط الحال ، يعانى من أزمات مالية حادة ..

ولقد وجد غايته فى (أحمد) (وهذا ليس اسمه الحقيقى) ..

فذلك الشاب (أحمد) جندى متطوع ، يعول أسرة كبيرة ، ويعانى دائمًا من أزمات مالية حادة ، لا يكف عن الشكوى منها قط ..

وفى بطء وهدوء ، راح (عبد الله) يغزل خيوطه حول (أحمد) فتقرب منه ، وأقرضه بعض النقود ، وتحدث معه حول (مصر) ، وعدم قدرتها على مواجهة (إسرائيل) ، وضعف الجيش المصرى بعد النكسة .. و ... و ...

ثم جاءت لحظة المواجهة ..

وذات ليلة ، وهما يجلسان أمام التلفاز ، طرح (عبد الله) الأمر على (أحمد) ، وراح يزينه له ، ويشرح مزاياه ، ويؤكد كبر مكافآته ..

وطوال الوقت ، كان (أحمد) يحدق فيه ذاهلاً ، حتى انتهى من حديثه ، فأطرق الجندى بضع لحظات ، ثم لم يلبث أن رفع عينيه إليه ، وطلب منه مهلة للتفكير ، حتى مساء اليوم القادم ..

ومنحه (عبد الله) تلك المهلة بابتسامة واسعة واثقة ، وذكره مرة أخرى بالمكافآت السخية ، التى ستنهى كل مشكلاته المالية إلى الأبد ، وودعه وهو واثق تمامًا من أنه لن يستطيع مقاومة الأمر ، وأنه سيعود إليه صاغرًا فى النهاية ..

وبالفعل ، عاد إليه (أحمد) فى الليلة التالية ؛ ليعلن موافقته على الأمر ، ثم سأله فى لهفة شديدة :

- ألا يمكننى الحصول على أى مبلغ مقدمًا ؟ أنت تعلم كم أحتاج إليه .

تراجع (عبد الله) فى مقعده ، ووضع ساقًا فوق أخرى ، وهو يجيبه :

- لو أنك تحتاج إلى المال بهذه السرعة ، فاذهب واجمع بعض المعلومات ، وربما تحصل على أكثر مما تطمح إليه ..

حاول (أحمد) أن يقنعه بمنحه مبلغًا مبدئيًا ، إلا أن (عبد الله) نفذ كل ما تعلمه فى جهاز المخابرات الإسرائيلى ، ورفض منحه قرشًا واحدًا ، قبل أن يحصل منه على المعلومات العسكرية بالفعل ..

ولم يتأخر (أحمد) كثيرًا ، ففى ثالث يوم للقائهما ، كـان يحمل إليه كل الأخبار ، التى يمكن حملها من مقر عمله ، ثم طالبه بمكافأته فى لهفة شديدة ، فقدم له (عبد اللـه) مبلغًا صغيرًا من المال ، وأخبره أنه لا يستطيع منحه أية مكافآت ، قبل أن يراجع رؤساءه فى (تل أبيب) تلك المعلومات ، ويتأكدوا من أهميتها ..

وبعد أسبوع آخر ، حمل إليه (أحمد) كمية جديدة من المعلومات ، ومنحه (عبد الله) مكافأة سخية هذه المرة ، وأخبره أن (تل أبيب) راضية للغاية عما يرسله إليهم ، وأنهم يعدونه بمكافآت أكثر سخاءً ، فى المرات القادمة ..

ثم ، وكما يحدث دائمًا ، طالبه (عبد الله) بالتوقيع على إيصال باستلام المبلغ ، من المخابرات الإسرائيلية نفسها ..

وهنا ارتجف (أحمد) ، وارتعد ، وسأله عن مدى خطورة التوقيع على إيصال كهذا ، ولكن (عبد اللـه) أكد لـه أنـه لاخطورة من هذا على الإطلاق ، وأن أحدًا فى (مصر) كلها ، لن يرى هذا الإيصال قط ، وأنه مجرد إجراء روتينى فحسب ..

وبمنتهى القلق ، وقـع (أحمـد) الإيصـال ، فابتسم (عبد الله) فى ارتياح ، وأدرك أن الجندى قد انغمس فى الأمر بالفعل ، وأنه لم يعد بوسعه التراجع عنه ..

ولم يبد أبدًا أن (أحمد) ينوى التراجع ، فقد راح يحمل الكثير والكثير من المعلومات ، ويحصل على مكافأته ، ثم يوقع الإيصالات فى آلية ، قبل أن يحصى النقود فى لهفة شديدة ..

وبعد أن تطور الأمر ، منح (عبد اللـه) (أحمـد) آلـة تصوير صغيرة ، وطلب منه التقاط صور لبعض الوثائق السرية فى وحدته ..

وأبدى (أحمد) تخوفه من هذا الأمر بعض الوقت ، ثم لم يلبث أن وافق ، وحمل آلة التصوير الصغيرة معـه إلـى وحدته العسكرية ، وقام بتصوير الوثائق المطلوبة بالفعل ..

وفى المساء ، فى منزل (عبد اللـه) أخرج (أحمـد) (الميكروفيلم) ، وسلمه له ، و ...

وفجأة ، اقتحم عدد من الرجال المنزل ، واتسعت عينا (عبد اللـه) فى ذهول ، عندما كبل اثنان منهم حركتـه ، وتقدم نحوه الثالث ، قائلاً :

- (م . ن) .. من المخابرات المصرية ، ورفيقى هذا يمثل النيابة العامة .. إننا نلقى القبض عليك ، بتهمة التجسس لحساب (إسرائيل) ..

ولكن ذهوله هذا لم يلبث أن تحول إلى انهيار كامل ، عندما التفت رجل المخابرات إلى (أحمد) ، وصافحه ، مستطردًا :

ـ شكرًا لتعاونك معنا منذ البداية يا (أحمد) .

وابتسم (أحمد) ، مغمغمًا :

ـ إنها (مصر) يا سيادة الضابط .. (مصر) .

ومع انهياره التام ، لمْ يتردد (عبد الله) فى الإدلاء باعتراف شامل كامل ، ذيله بتوقيعه فى النهاية ، ودموعه تتساقط فوقه ، تنعى ذلك الطموح ، الذى لم يحمله إلى القمة ، كما كان يتوقع ..

بل ألقى به فى أعماق سحيقة ..

أعماق البئر ..

بئر الخيانة ..

★ ★ ★

١ـ علم وفن ..

الحديث عن عالم الجاسوسية ، حديث لا ينتهى أبدًا ...

ولا ينضب معينه على الإطلاق ..

فالجاسوسية ليست مجرّد روايات مثيرة ، وأحداث مبهرة ، وتفاصيل تحبس لها الأنفاس ..

الجاسوسية أكبر من هذا بكثير ..

إنها علم ..

وفن ..

علم تتحدّث عنه ، وتصفه ، وتدرسه ، وتمحّصه مئات ، وربما ألوف الكتب والمراجع ..

علم له أصوله ، وقواعده ، ومبادئه ..

وتقاليده أيضًا ..

وهى أيضًا فن رفيع ..

فن أنيق ، مدهش ، يعتمد على فهم تلك الأصول والقواعد ، والتعامل معها وبها ، بمهارة وحرفية شديدين ، على لوحة

شطرنج غير محدودة ، قد تقتصر على ساحة واحدة ، أو تمتد لتشمل العالم كله ، لو اقتضى الأمر ..

والمدهش فى هذا الفن ، هو أن الجميع على دراية بالقواعد نفسها ..

وبالقواعد كلها أيضًا ..

وعلى الرغم من هذا ، فهناك دومًا منتصر ومهزوم ..

رابح وخاسر ..

تمامًا كما يحدث على رقعة الشطرنج الحقيقية ..

الكل يعرف قواعد اللعبة ..

ولكن الكل لا يربح دائمًا ..

ولا يخسر دائمًا ..

ونادرًا ما يأتى التعادل ..

ولهذا يطول الحديث ..

ويطول ..

ويطول ..

ولكن من أين نبدأ الحديث عن هذا العالم ؟!

أمن عالم المخابرات ، أم عالم الجاسوسية ؟! (وهما أمران مختلفان ، وليسا متقارنين ، كما سيتبَيَّن فيما بعد) ..

دعونا نبدأ إذن تعريف كلمة (مخابرات) Intelligence Service والمدهش أن التعريف ليس بسيطًا أو مباشرًا ، كما قد تتصوَّر ؛ إذ إن معظم الموسوعات والمراجع لم تضع توصيفًا واضحًا لكلمة (مخابرات) هذه ..

البعض وصفها بأنها عملية جمع المعلومات ، بكل الوسائل ؛ لحماية الأمن القومى ..

والبعض الآخر استخدم المصطلح ، لوصف الأجهزة التى تقوم بهذا العمل ..

والبعض الثالث اعتبر أن المصطلح يخص النتائج التى تخرج بها تلك الأجهزة ، من خلال ما تحصل عليه من معلومات ، فى حين أصر الآخرون على أن المصطلح يرتبط بكل هذا ، فى وقت واحد ..

أما هنا ، فسنصف (المخابرات) بأنها الجهاز أو الأجهزة ، المسئولة عن جمع كافة المعلومات والأخبار عن كل الدول الأجنبية ، عدوة كانت أم صديقة ، وبخاصة دول الجوار ، وتقديمها إلى القيادة السياسية والعسكرية ، على نحو يسمح لها بحسن تقييم الأمور ، ويساعدها على اتخاذ القرارات المناسبة ، فى الأوقات المناسبة ..

وهذا التعريف ، على الرغم مما قد يوحى به ، ليس دقيقًا تمامًا فى مجمله ، إلا لتعريف المخابرات ، بأبسط كلمات ممكنة ، أو لتعريف الصورة الأوَّلية ، التى نشأت عليها أجهزة المخابرات ..

أما مخابرات اليوم ، فهى تختلف حتمًا ، إذ أصبحت أكثر تطورًا ، وأكثر تعقيدًا ، وأكثر تشابكًا عن مخابرات الأمس ، وربما الأمس القريب أيضًا ، بألف مرة على الأقل ، إذ لم تعد مهمتها تقتصر على جمع المعلومات فحسب ، وإنما تمتد إلى ربطها ببعضها ، وتنسيقها ، وتحليل مضامينها ، والخروج منها بنتائج دقيقة للغاية ، تنخفض باحتمالات الخطأ ، فى الخطوة التالية ، إلى أدنى حد ممكن ..

وبلوغ هذا الحد ليس بالأمر السهل أو الهيِّن ، بالنسبة لأى جهاز مخابرات ، أيًا كان ، إذ إن الخطوة الأولى ، وهى الحصول على المعلومات ، أمر بالغ الصعوبة والتعقيد ، إلى حد يفوق كل التصورات ، خاصة وأن لكل دولة ، وكل خصم ، أو حتى كل صديق ، أجهزة مماثلة ، تسعى بكل قوتها وطاقتها ؛ لمنع حصول الآخرين على معلوماتها وأسرارها المهمة ، سواء السياسية ، أو الاقتصادية ، أو العسكرية مما يصنع حربًا متصلة ، يسعى كل طرف فيها لحماية معلوماته ، واختراق معلومات الآخر ، فى الوقت ذاته ..

هناك أيضًا أنواع من التجسّس ، لم تكن معروفة من قبل ، وتم استحداثها ، مع تطوّر العلوم والتكنولوجيا ، مثل الجاسوسية الإلكترونية ، على أجهزة الكمبيوتر وشبكات الإنترنت والمعلومات ، والتجسّس البيولوجى ، للحصول على عينات حيوية ، مثل الخلايا ، أو اللعاب ، أو حتى البول ، من السياسيين ، والعسكريين ، والقادة ، والزعماء ؛ لتحديد طبيعتهم ، وقدراتهم ، وحالاتهم العضوية والنفسية ، وكل ما يمكن كشفه ومعرفته ، من سماتهم وكفاءاتهم ؛ للاستفادة بها وقت اللزوم (وسنتعرّض لكل هذا بمزيد من التفاصيل ، فيما بعد) ...

تقنية التجسّس أيضًا تبدلت وتطوّرت كثيرًا ، خلال العقود الأخيرة ، مع تطوّر التكنولوجيا ووسائل الاتصال ، مما استوجب تطور الفن والقواعد أيضًا ..

وجمع المعلومات ، الذى هو الركيزة الأساسية ، لأى جهاز مخابرات ، يعتمد بالدرجة الأولى على مصدرين أساسيين ، أولهما الحصول على كل المعلومات والأخبار العلنية ، وثانيهما اختراق وعبور كل الأسوار ، للحصول على المعلومات السرية ..

والمصادر العلنية هنا يقصد بها كل ما ينشر على نحو علنى ، فى الصحف ، والمجلات والكتب ، والنشرات الدورية العامة ، ووسائل الإعلام المرئية، والسمعية وحتى الصحف المحلية ، والقنوات الإذاعية الخاصة ، وشبكة الإنترنت وما يمكن أن يصدر من وسائل غير تقليدية أيضًا ..

والمعلومات ، التى يمكن الحصول عليها ، من هذه المصادر العلنية ، غزيرة ومتعدّدة إلى أقصى حد وأكبر دليل على هذا هو ذلك الكتاب ، الذى أصدره الصحفى السويسرى (برتولد جاكوب) ، عام ١٩٣٥م ، والذى حوى كل أسرار الجيش النازى ، قبل أن يعلن (هتلر) نواياه الاستعمارية ، مما أصاب جنرالات النازية بالجنون ، ودفعهم إلى القيام بعملية لاختطاف (جاكوب) من (سويسرا) المحايدة ، ليتبين لهم فيما بعد أنه حصل على كل المعلومات ، الواردة فى كتابه ، من صفحات الوفيات ، فى الصحف الألمانية وحدها !!

ومن أهم مصادر المعلومات العلنية أيضًا ألسنة الناس ، وبخاصة أولئك الذين اعتادوا الثرثرة ، (فى الفاضية والمليانة) ، حول ما يخص أمور عملهم ونظم تشغيلهم ، دون أن يتصوّروا مدى الخطر ، الذى يمكن أن ينجم عن تلك المعلومات ، التى يتصوّرونها بسيطة ..

ففى عام ١٩٦٧م ، وعندما كانت القيادة السياسية تتوعَّد (إسرائيل) بإلقائها فى البحر ، كان المحللون هناك أمام تساؤل خطير جدًا : أهذه الأحاديث حقيقية ، وهذه النوايا صادقة ، أم إنه مجرَّد كلام فى الهواء ..

وعلى مقهى بسيط وفى وجود أذن خفية للمخابرات الإسرائيلية ، شكا أحد عمال شركة كبرى للأطعمة المحفوظة ، من ضغط العمل الشديد ، فى تلك الأيام ، نظرًا لمضاعفة إنتاج علب الخضراوات المحفوظة ..

ولأنه كانت هناك معلومة قديمة ، تقول ، إن الجندى المصرى يحتاج إلى علبة من الخضراوات المحفوظة يوميًا ، أدرك الإسرائيليون أن (مصر) تضاعف (التعيين) الخاص بجنود الجيش ، مما يعنى أنها جادة فى تهديداتها .. وكان ما كان ..

ولأن كل أجهزة المخابرات تدرك أهمية المصادر العلنية للمعلومات ، فهى تسعى طوال الوقت للحصول عليها ، حتى إنه قديمًا ، وقبل أن تتقدَّم سبل الاتصالات ، كانت أجهزة المخابرات تسعى لتجنيد عمال المطارات للحصول على الصحف ، التى يتركها الركاب خلفهم ، والقادمة فى ساعات مبكِّرة من الصباح ؛ للفوز بالمعلومات فى أقرب وقت ممكن ..

وفى الوقت ذاته ، تخصَّص أجهزة المخابرات شطرًا من اهتمامها ؛ لبث بعض الأخبار أو المعلومات المدروسة والمدسوسة ، من خلال وسائل الإعلام المختلفة ، حتى يلتقطها الخصوم ، ويقومون بتحليلها ، ضمن ما حصلوا عليه من معلومات ؛ ليتوصلوا فى النهاية إلى نتائج خاطئة ومضلِّلة ، وبعيدة كل البعد عن الصواب ..

وكلنا نذكر ذلك الخبر الذى نشرته الصحف المصرية ، فى الأيام الأخيرة من سبتمبر ١٩٧٣م ، وقبل أيام قليلة من حرب تحرير (سيناء) ، عن فتح باب الحجز ؛ لأداء فريضة العمرة ، لضباط وجنود الجيش المصرى ..

كذلك كان خبر زيارة الأميرة (مرجريت) ، التى تقرَّر وصولها إلى (مصر) صباح الأحد ٧ أكتوبر ١٩٧٣م ..

وخبر دعوة المشير (أحمد إسماعيل) لوزير دفاع (رومانيا) ، لزيارة (مصر) ، يوم الاثنين ٨ أكتوبر ١٩٧٣م ..

كل هذه كانت أخبارًا علنية ، المقصود بها خداع أجهزة المخابرات الإسرائيلية ، ودفعها إلى استخلاص نتائج خاطئة وفاسدة ..

وهذا ما حدث بالفعل ، وما أثبت قوة مصادر المعلومات العلنية ..

أما عن مصادر المعلومات السرية ، فلنا فيها حديث آخر ..

فى كتاب قادم ، إن شاء الله ..

★ ★ ★

ماذا تقترح ؟!

صديقى القارئ ..

هذه السلسة غير تقليدية ..

إنها أوّل سلسلة ، فى العالم العربى ، تقدّم لك أسرار عالم الأسرار ..

أوّل سلسلة باللغة العربية ، تكشف أمامك ، غموض أقوى عالم ..

عالم الجاسوسية ..

ولكى تظل السلسلة غير تقليدية ، فلابد أن تشاركنا فيها برأيك ..

باقتراحك ..

بمفهومك ..

أخبرنا ، ما الذى أعجبك أكثر فيها ؟!

أى جزء منها أثار اهتمامك وانتباهك ؟!

وما الذى تقترح إضافته إليها ؟!

موسوعة الجاسوسية ؟!

سينما الجاسوسية ؟!

تاريخ الجاسوسية ؟!

مشاهير عالم الجاسوسية ؟!

أم ماذا ؟!

اقترح ..

وسندرس اقتراحك ، و ...

وربما يجعلنا هذا أفضل ، إن شاء الله (العلى القدير)

د . نبيل فاروق

قصة العدد

المغامرة السويسرية

(من قصص الجاسوسية العالمية)

١ـ الاختيـــار..

على الرغم من كل محـاولات (أوروبا) ؛ لتجنب إراقة الدماء ، أصر الزعيم النـازى (أدولف هتلر) علـى إشعال نيران الحرب العالمية الثانية ، مع بدايات عام ١٩٣٩م ، وهو ينطلق بجيوشه الجرارة ، التـى كدسها فـى غفلـة من الزمن ؛ ليجتاح جيرانه ، ويفرض السيطرة النازية عليهم ، وينتقل مـن انتصار إلى آخر ؛ لتحقيق الحلم الآرى ، الذى وضع قواعده داخـل زنزانـة صغيرة ، فـى مرحلـة سابقة ، تركت آثارها عليه حتى آخر لحظة فى حياته ..

ومع كل انتصاراته السـاحقة ، ظـل (هتلر) دومًا يحلم بالنصر الأكبر ، الذى بدا له متمثلاً فى أمر واحد لا غير ..

احتلال الجزر البريطانية ..

فبعد انتصاره الساحق السريع ، على (فرنسا) ، إحدى الدولتين العظميين فى ذلك الحين ، أصبح إسقاط الدولـة الثانية ، أو الإمبراطورية البريطانية المتبقية ، هـو الحاجز الوحيد ، الذى يحول بينه وبين أن يتبوأ عرش العالم ..

وبلا منازع ..

وكان البريطانيون أنفسهم يدركون هذا ..

وبالذات جهاز مخابراتهم ، الذى يحوز شـهرة واسعة ، فى العالم أجمع ..

لذا فقد بدأت حرب الجاسوسية والمخابرات ، بين المخابرات الألمانية ، التـى يرأسـها (هيزيش همـلر) ، والمخـابرات البريطانية ، بمكتبيهـا الخـامس والسـادس ، منـذ اللحظـة الأولى للمعركة ..

بل حتى وقبل أن يبدأ القتال العسكرى فعليًّا ..

وفى الثامن من نوفمبر ، عام ١٩٣٩م ، وفى بلدة (فنلو) الهولنديـة ، المتاخمـة للحـدود الألمانيـة ، قـام رجـال المخابرات الألمانية بواحدة من أنجح وأقوى عملياتهم ، وتجاوزوا كل الحدود ، عندما اقتحموا نقطة الحراسة ، عند الجانب الهولندى ، وانقضوا على سيارة صغيرة ؛ لينتزعوا مـن داخلهـا رجلـى المخـابرات البريطـانيين ، الكـابتن (سى . باين بست) ، والميجور (هـ . ر . ستيفنز) ، ويعودان بهمـا إلى الجانب الألمـانى ، قبل أن يتم نقلهمـا بطائرة حربية خاصة إلى (برلين) ..

وفى (برلين) ، ذاق ضابطا المخابرات البريطانيان عذابًا ما بعده عذاب ، حتى تحطمت مقاومتهما ، وانهارت تمامًا ، وأدليا بكل ما لديهما للنازيين ..

وكانت كارثة رهيبة ، ونكبة ما بعدها نكبة ، حطمت مستقبل رئيس الوزراء البريطانى (تشمبرلين) ، وقضت على سير (هوج سنكلير) ، مدير المخابرات البريطانى ، بالإضافة إلى أنها قد كشفت الغطاء عن جيش من الجواسيس ، الذين يعملون لحساب المخابرات البريطانية ، فى (أوروبا) كلها ..

وفى ظروف قتالية وحربية ، تهدد أمن وسلامة (إنجلترا) ، وأوروبا كلها ، كان من المستحيل الاستمرار فى حالة الفراغ التجسسى هذه ، بأى حال من الأحوال ..

فلقد توقفت المعلومات الواردة من (ألمانيا) أو كادت ، وانعدمت وسائل الاستخبارات الخارجية ، حتى لم يعد متبقيًا منها سوى عدد لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة ..

وكان من الضرورى أن يعاد بناء شبكات الجاسوسية داخل (ألمانيا) النازية ، فى أسرع وقت ..

وبأى ثمن ..

ومن أجل هذا ، اجتمع مدير المخابرات البريطانية الجديد (ستيوارت .. ج . فنرز) ، النائب السابق لسير (هوج سنكلير) ، مع عدد من أفضل ضباط مخابراته ، وأكثرهم مدعاة للثقة ، وطرح عليهم الأمر ، قائلاً :

ـ الوسيلة الوحيدة أمامنا الآن ، هى أن نبدأ فى بناء طابور استخباراتى خامس ، فى قلب (ألمانيا) ، من خلال بعض المنشقين عن النظام النازى ، من المدنيين والعسكريين ؛ لجمع المعلومات السريعة ، التى تتيح لنا تجنب أية ضربات أخرى عنيفة ، فى الوقت الحالى .

غمغم الميجور (كلارك) فى توتر :

ـ المنشقون مرة أخرى .. هل يمكننا أن نثق فيهم ، بعد ما حدث فى (فنلو) ؟!

تراجع (فنرز) فى مقعده ، قائلاً فى صرامة :

ـ هذه مجموعة منتقاة من المنشقين ، قمنا بدراستهم جيدًا ، خلال أكثر من شهرين كاملين ، بوساطة مجموعة من الخبراء النفسيين والعسكريين ، عن طريق المعلومات الدقيقة عنهم ، والتى أرسلها عميل لنا ، فى قلب النظام النازى ، على أرفع مستوى من الأهمية .

تساءل أحد الرجال فى اهتمام :

ـ فيم انتظارنا إذن ؟!

أشار (فنرز) بيده ، قائلاً :

ـ اتصالاتنا السابقة كلها ، مع عميلنا فى (برلين) ، كانت تحوى الأسماء الكودية فحسب ، للمنشقين المرشحين ، تحسبًا لاعتراض رسائله أو كشف أمرها ، على أى نحو كان ، ولكن اتخاذ خطوة حاسمة ، فى هذا الشأن ، تحتم معرفة أسمائهم الحقيقية ، ورؤية ملامحهم أيضًا ، فلدينا هنا عالم من علماء الدراسات الاجتماعية ، يتحدث عن كيفية معرفة طبائع البشر ، من خلال الدراسة الدقيقة لملامحهم وقسماتهم .

تساءل الميجور (كلارك) ، وقد بدا له الأمر مهمًا للغاية :

ـ وكيف سيسلمنا عميلنا هذا القائمة الحقيقية ، للمنشقين المرشحين ؟!

أطلق (فنرز) تنهيدة حارة ، من أعمق أعماق صدره ، وكأنما يعبِّر مقدمًا عن صعوبة الأمر ، قبل أن يجيب :

ـ عميلنا لديه فرصة نادرة ، لمقابلتنا فى (برن) السويسرية ، بعد خمسة أيام فحسب من الآن ، ولكنه يخشى أن نرسل أحد ضباطنا ، حتى لا يكون (بست) أو (ستيفنز) قد أدلى بأوصافه للنازيين .

تساءل (كلارك) :

ـ ولماذا لا يترك القائمة فى مكان ما ، ونرسل نحن من يلتقطها منه ؟!

هزَّ (فنرز) رأسه ، قائلاً :

ـ الخبراء يؤكدون أنه لا يمكننا المجازفة بهذا ؛ فهناك أكثر من احتمال ، لفقدان الميكروفيلم ، الذى يحوى القائمة وصور المنشقين ، قبل أن نلتقطه نحن ، والأمر لا يحتمل الفشل .. أو حتى التأجيل .

تراجع الميجور (كلارك) فى مقعده ، وبدت عليه علامات التفكير العميق ، فى حين تساءل أحد رجال المخابرات :

ـ كيف يمكننا إذن أن نحصل على ذلك الميكروفيلم ؟!

أشار إليه (فنرز) ، قائلاً :

ـ هذا سبب اجتماعنا هنا يا رجل ... أن نبحث جميعنا عن جواب السؤال .

هزَّ رجل آخر كتفيه ، وهو يقول فى ضيق :

ـ يمكننا المجازفة بإرسال أحد ضباطنا الجدد ، لالتقاط الميكروفيلم .. لا أعتقد أن النازيين يعرفون كل ضباطنا الجدد .. بل يمكننا حتى أن نستعين بأحد ضباط الجيش .

مطَّ (فنرز) شفتيه ، قائلاً :

ـ المشكلة أن وجود عميلنا فى (برن) ، يعود إلى أن بعض قادة الحزب النازى يعقدون اجتماعًا مع وفد إسبانى هناك ، وهذا يعنى أن رجال المخابرات الألمانية سيملئون المدينة ، وسيثير انتباههم وشكوكهم أى شخص ، يوحى بالقوة أو الحزم العسكرى .

وهنا تدخَّل (كلارك) ، قائلاً :

ـ لا بد وألا يبدو رجلنا كذلك إذن .

سأله (فنرز) فى اهتمام :

ـ هل تقترح أن يلعب أحد رجالنا دور شاب مستهتر مثلاً ؟!

هزَّ (كلارك) رأسه نفيًا ، وقال فى حزم :

ـ هذا لن يصلح .

ثم نهض من مقعده ، وتحرَّك فى الحجرة ، وهو يفكِّر فى عمق ، دون أن يحاول أحدهم انتزاعه من أفكاره بحرف واحد ، حتى توقَّف فجأة ، وقال ، وكأنه يواصل تفكيره :

ـ إننى أفكِّر فى أن يتولَّى المهمة شاب من خارج الجهاز .. شاب مستهتر .

ثم التفت إليهم ، مضيفًا بكل الحزم :

ـ مستهتر بالفعل .

وكان اقتراحًا مثيرًا للدهشة .. إلى حد كبير .

* * *

٢ ـ المستهتر ..

● تثاءب الصحفى (آيان ماجور) ، فى تكاسل شديد ، وهو ينهض من فراشه ، قبل دقائق ست ، من إعلان عقارب الساعة منتصف النهار ، وبدا شديد الخمول ، وهو يغسل وجهه ، ويحلق لحيته ، مغمغماً :

ـ يا لسخافة الألمان .. ألا يمكنهم أن يتوقفوا عن قصف نيرانهم ليلة واحدة ؛ حتى يمكننا النوم بهدوء .

تثاءب مرة أخرى ، وهو يرتدى ملابسه ، وراجع فى سرعة ذلك المقال القصير ، الذى سيقدّمه بعد ساعة واحدة ، لإحدى الصحف التى يعمل لحسابها ، قبل أن يلتقط معطفه ، متمتمًا :

ـ يوم عمل مرهق آخر .

لم يكن (ماجور) من الصحفيين المرموقين ، لا فى ذلك الحين ، ولا حتى فيما بعد ، ولكنه كان يتكسب رزقه من كتابة عدد من المقالات البسيطة ، فى عدة صحف بريطانية ، تنقده كل منها مبلغًا ضئيلاً ، لا يكفى لإقامة أوده ، ولكن مجموع ما يتقاضاه منها كان يسمح له بحياة معقولة وآمنة ، فى زمن اشتعال نيران الحرب ..

ولأنه لم يكن من ذلك الطراز من الصحفيين ، الذى يتابع ويواكب الأخبار الطازجة أو الساخنة ، وإنما يقدّم دومًا موضوعات تقليدية باردة ، فقد خلت طبيعته تمامًا من أى دافع للسرعة أو العجلة ، أو حتى الاستيقاظ المبكّر ، سعيًا وراء الأحداث ..

وفى هدوء بارد ، اكتسبه من طبيعة عمله ، ومن جنسيته الإنجليزية العريقة ، غادر منزله ، واتجه نحو محطة الأوتوبيس ، دون أن يلاحظ حتى تلك السيارة السوداء ، ذات الزجاج الداكن ، والتى راحت تتعقبه فى سرعة بطيئة ، قبل أن تتوقف ، ويخرج منها رجل ممشوق القامة ، قوى البنية ، صارم الملامح ، اتجه نحوه فى خطوات سريعة ، ثم أمسك ذراعه فى قوة من الخلف ، قبل أن يبلغ محطة الأوتوبيس ، وقال فى خشونة عجيبة :

ـ (آيان ماجور) .. أليس كذلك ؟!

شعر (ماجور) بأصابع الرجل الفولاذية تكاد تنغرس فى ذراعه ، إلا أنه التفت إليه فى هدوء ، قائلاً :

ـ أمن الضرورى أن تنتزع ذراعى يا هذا ، حتى تلقى سؤالك ؟!

تجاهل الرجل عبارته تمامًا ، وهو يجذبه فى غلظة نحو السيارة ، قائلاً بنفس الخشونة الصارمة :

ـ بعضهم يريد أن يتحدَّث إليك .

حاول (ماجور) أن يتملص من تلك القبضة القوية ، وهو يقول :

ـ بعضهم من ؟!

أجابه الرجل ، وهو يدفعه داخل السيارة دفعاً :

ـ ربما يريدونك أن تمدهم بمقال جديد .

سقط جسد (ماجور) على الأريكة الخلفية للسيارة ، وارتطم بجسد رجل ضخم آخر ، قبل أن يدفع الأول جسده إلى جواره ، فيصبح محاصرًا بجبلين بشريين ، يبلغ أضألهما ضعف حجمه على الأقل ..

ولم ينبس (ماجور) ببنت شفة ..

لم تنزلق من بين شفتيه كلمة واحدة ، والسيارة تنطلق ، وتشق طريقها وسط شوارع العاصمة البريطانية نصف المتهدِّمة ..

بل الواقع أنه قد انكمش فى مقعده ، حتى كاد يتلاشى بين الرجلين ، وعقله يبحث عن تفسير لما يحدث ، ويراجع كل ما كتبه ، خلال الأشهر الثلاثة الماضية ، خشية أن يكون قد أساء إلى أحدهم ، دون أن يدرى ..

وبينما يعمل عقله بأقصى طاقته ، واصلت السيارة طريقها ، حتى توقفت أمام منزل عادى ، فى ضاحية لندنية هادئة ، وغادرها أحد الرجلين ، وهو يقول بصوته الخشن ، ولكن بأسلوب شديد الاحترام والتهذيب :

ـ تفضَّل يا سيِّد (ماجور) .

غادر (ماجور) السيَّارة فى حذر ، وتبع الرجل فى استسلام إلى داخل المنزل ، وراح يسير خلفه عبر ممراته ، حتى انتهى بهما الأمر إلى حجرةَ مكتب واسعة أنيقة ، يقف داخلها رجل واحد ، انشغل بالتطلُّع عبر نافذتها الوحيدة ، التى أزاح الستار عن فرجة صغيرة منها ، دون أن يبالى بالالتفات إليهما ، على الرغم من أنه قد سمع وقع أقدامهما ، وصوت الباب يُفتح حتمًا ..

وفى احترام بالغ ، قال ذلك القوى ، المصاحب للصحفى :

ـ (آيان ماجور) يا سيِّدى .

أشار ذلك الرجل عند النافذة بيده ، من خلف ظهره ، دون أن يستدير إليهما ، فأفلت الضخم ذراع (ماجور) ، وتراجع فى سرعة واحترام ، وأغلق الباب خلفه فى هدوء ، وكأنما يحرص على ألا يصدر عنه أدنى صوت ، تاركًا الصحفى بالداخل ، مع ذلك الآخر ..

ولنصف دقيقة أو يزيد ، لم يتحرك ذلك الواقف عند النافذة ، أو يبدو عليه أنه يشعر بوجود (ماجور) فى المكان ، حتى إن هذا الأخير قد راودته فكرة الفرار ، لو أنه وجد سبيلاً إلى هذا ، و ...

« إلى أى مدى يمكن أن تعمل ، فى سبيل وطنك ؟! »

ألقى الواقف عند النافذة السؤال بغتة ، فانتفض جسد (ماجور) فى توتر ، وفغر فاه فى دهشة ، وبخاصة عندما التفت إليه الرجل ، الذى بدا مهيبًا ، بملامحه التى تجمع ما بين الوسامة والصرامة معًا ، وهو يتابع :

ـ المفترض أن تجيب فورًا ، دون لحظة تفكير واحدة .

انتفض (ماجور) مرة أخري ، وقال :

ـ أى شىء .

مال الرجل نحوه قليلاً ، وهو يقول :

ـ عفوًا .

تنحنح (ماجور) ، وحاول أن يشد قامته ، وهو يجيب فى توتر ، لم يستطع كتمانه أو إخفائه :

ـ إننى مستعد لفعل أى شىء ، فى سبيل الوطن .

خُيِّل إليه أنه قد لمح شبح ابتسامة ، فى ركن شفتى الرجل ، الذى اتجه فى هدوء إلى مكتبه ، وجلس خلفه ، وشبَّك أصابعه أمامه ، ثم قال فى شىء من الحزم :

ـ ملفك يقول : إنك تتميَّز باستهتار شديد ، حتى إنك لم تقدِّم مقالاً واحدًا فى موعده ، طوال ما يقرب من أربع سنوات من العمل فى الصحافة .

هزَّ (ماجور) كتفيه ، دون أن يجيب ، فتراجع الرجل فى مقعده ، وتطلَّع إليه بضع لحظات ، قبل أن يسأله :

ـ والدتك سويسرية الأصل .. أليس كذلك ؟!

قال (ماجور) ، فى لهجة متحدية ، لم يكن لها ما يبرِّرها :

ـ (سويسرا) ما زالت دولة محايدة .

تطلَّع إليه الرجل بضع لحظات ، ثم نهض من خلف مكتبه ، واتجه نحوه ، وهو يقول فى هدوء ، حمل لأوَّل مرة لمحة من المودَّة :

ـ لقد قرأت ملفك كله ، ولكننى اعتدت دومًا قراءة ما بين السطور ، قبل أن أقرأ السطور نفسها .

واصل (ماجور) أسلوبه العدوانى غير المبرَّر ، وهو يقول :

ـ وما الذى أخبرتك به تلك المساحات البيضاء ، بين السطور ؟!

أجابه الرجل فى سرعة :

ـ أنك لست مستهترًا ، كما توحى ظواهر الأمور .

قال (ماجور) فى توتر :

ـ ومن أدراك ؟!

أجابه الرجل بنفس السرعة :

ـ أنا أعرف .

ثم مدّ يده إليه ، مستطردًا بلهجة تفيض بالمودّة ، وإن لم تخل من تلك الصرامة الحازمة ، التى تميِّز أسلوبه :

ـ أنا الميجور (كلارك) ، من المكتب السادس والمفترض ، وفقًا لكل قواعد الأمن ، أنه لا ينبغى أن أخبرك بهذه المعلومات مباشرة .

بدا (ماجور) مبهورًا ، وهو يقول :

ـ المكتب السادس ؟! أتعنى المخابرات البريطانية ؟!

وما الذى تريده منى المخابرات البريطانية ؟!

قال الميجور (كلارك) فى هدوء :

ـ ليست المخابرات البريطانية هى التى تريد ..

ثم مال نحوه ، وتطلَّع إلى عينيه مباشرة ، وهو يضيف :

ـ (بريطانيا) هى التى تريد .

وانتفض قلب (ماجور) بين ضلوعه .. بعنف .

* * *

٣ ـ سويسرا ..

● سرت رعدة باردة ، فى جسد الصحفى البريطانى (آيان ماجور) ، وهو يهبط من القطار ، فى مدينة (برن) السويسرية ، فى ذلك اليوم من أيام يناير ١٩٤٠م ، وارتجفت أصابعه فى انفعال ، تجاوز إحساسه ببرودة الطقس ، وهو يضمّ ياقتى معطفه بيسراه ، ويحمل حقيبته الوحيدة بيمناه ، متجهًا إلى واحدة من سيارات الأجرة ، المتراصة أمام باب محطة القطار ..

كان يشعر فى الواقع بإجهاد شديد ، بعد الرحلة المرهقة ، التى خطط لها رجال المخابرات البريطانية ، لنقله إلى (سويسرا) ، التى انقطعت سبل المواصلات المباشرة ، بينها وبين الجزر البريطانية ، إثر اندلاع الحرب ، حتى إنه أسبل جفنيه داخل سيارة الأجرة ، عاجزًا حتى عن استرجاع تفاصيل الخطة ، التى لقنه إياها الميجور (كلارك) ، وأصرّ على أن يحفظها عن ظهر قلب ، طوال الأيام الثلاثة الماضية ..

وعلى الرغم من الاهتمام الشديد ، الذى أبداه رجال المخابرات البريطانية ، ومن اهتمامهم بأدق التفاصيل ، وتحذيراتهم المتواصلة ، من حتمية الالتزام بالخطة ، كان الأمر يبدو بالنسبة له هو ، بسيطًا أكثر مما ينبغى ..

فكل ما عليه هو أن يقضى يومه الأوّل ، فى التجوّل فى شوارع (برن) ، ومغازلة كل أنثى جميلة تمرّ به ، ثم ينام ملء جفنيه ؛ ليتجه فى صباح اليوم التالى إلى النهر ، ويجلس على مقعد بعينه ، وينتظر حتى يأتى شخص ما ؛ ليتبادل معه عبارات متفق عليها ، ثم يمنحه علبة من البلاستيك القوى ، عليه أن يحتفظ بها ، ويحرص عليها ، حتى يعود بها إلى (لندن) ، أو يسلّمها إلى السفارة البريطانية فى (برن) ..

الشىء الوحيد ، الذى بدا له سخيفًا ، هو أن أحدًا لم يخبره عما تحويه تلك العلبة البلاستيكية ، التى قطع كل هذه المسافة ليحصل عليها ، ويعود بها برحلة مرهقة أخرى إلى (لندن) ، و ...

« وصلنا يا سيّدى .. »

فتح عينيه فى صعوبة ، مع عبارة السائق ، وخُيّل إليه أنه قد انتزعه من نوم عميق ، فاعتدل بحركة متوترة ، وغادر السيارة ، حاملاً حقيبته الوحيدة ، وأنهى إجراءات الفندق ، وهو يقاوم النعاس فى صعوبة ، ولم يكد يصعد إلى حجرته ، حتى ألقى جسده المجهد على الفراش ؛ لينام ملء جفنيه .

ولكن العجيب أن هذا لم يحدث ..

فعلى الرغم من رحلته المرهقة ، والإجهاد الشديد الذى يشعر به ، استيقظ عقله الصحفى ، وهو يطرح على ذهنه عدة أسئلة ..

لماذا هو بالذات ؟!

لماذا اختاره رجال المخابرات البريطانية ؛ للقيام بمهمة بسيطة كهذه ؟!

لماذا ؟!

لماذا ؟!

راجع الخطة ، التى يحفظها عن ظهر قلب ، عدة مرات فى ذهنه ، دون أن يجد جوابًا منطقيًا للسؤال ، خاصة وأن كل ما سيفعله لا يحتاج إلى أية مهارات صحفية ، بل ويمكن أن يقوم به أى شخص عادى ..

أى شخص ..

بدأ عقله يدرس الأمر ، ويديره على كل الوجوه ، حتى استقرّ على أمر واحد لا غير ..

هذه العملية تنطوى على خطر ما ..

خطر رهيب ، جعل رجال المخابرات أنفسهم ، يتحاشون القيام بها شخصيًا ..

ومع الفكرة ، سرت فى جسده قشعريرة باردة كالثلج ، تحولت بسرعة إلى ارتجافة خوف ، سيطرت على كيانه كله ، حتى عجز عن إغلاق جفنيه ، فبات متسع العينين ، حتى صباح اليوم التالى ..

وعندما أعلنت عقارب الساعة تمام الثامنة صباحًا ، غادر فراشه ، وهو يشعر وكأن دبابة ضخمة قد عبرت فوق جسده ، وفتتت كل ذرة من عظامه !

ولكنه التزم بالخطة ..

تمامًا كما حفظها عن ظهر قلب ، على يد الميجور (كلارك) ..

ومع تذكره لرجل المخابرات البريطانى ، راح ذهنه المجهد يستعيد كل ما لقنه إياه ، طوال الأيام الثلاثة الماضية ..

تذكره حرفًا بحرف ، حتى وهو يتناول طعام الإفطار ، دون شهية حقيقية ، ثم يغادر الفندق فى التاسعة والنصف ، ويتجه نحو النهر ..

نحو منطقة اللقاء ، التى راجعها ألف مرة ، مع الميجور (كلارك) ..

كان النهر يبعد عنه بمسافة عشرين دقيقة ، من السير على الأقدام ، إلا أنه بدا له وكأنه يبعد ألف ألف ميل ، وهو يقطع المسافة إليه ، وعقله يشتعل بالتفكير ، ويضع ألف احتمال واحتمال ، لما يمكن أن يسفر عنه الأمر ، أو ما يمكن أن ينطوى عليه من مخاطر ..

وعندما بلغ المكان ، بعدما بدا له أقرب إلى دهر من الزمان ، جالت عيناه فيه فى سرعة ، قبل أن تتوقفا عند المقعد المتفق عليه مسبقًا ..

ولثوان تجمدت قدماه ، وهو يحدّق فى ذلك المقعد ، وكأنه مقعد كهربى ، سيتم تنفيذ حكم الإعدام فيه بوساطته ، ثم لم يلبث أن انتزع قدميه من الأرض انتزاعًا ، واتجه نحو المقعد ، وجلس فوقه ، وراح يقاوم ارتجافة أطرافه ، أو يسعى للتشاغل عنها ، بالتطلع إلى النهر الممتد أمامه ..

وفى بطء شديد ، راحت عقارب الساعة تمضى ، وتمضى ، وتمضى ، حتى بلغت العاشرة والنصف ، وقد أوشكت أعصاب الصحفى البريطانى على الانهيار ، و ...

« أتساءل دومًا ، لماذا تتجمد الأنهار فى الصيف ؟! »

كانت عبارة غير منطقية ، لا يمكن أن تخرج من بين شفتى شخص عاقل ، إلا أن جسد (ماجور) قد انتفض فى عنف لسماعها ، وشعر بضربات قلبه ترتفع بين ضلوعه فى قوة ..

هذا لأن تلك العبارة ، غير المنطقية ، وغير التقليدية ، كانت عبارة التعارف المتفق عليها ، عندما يلتقى بالعميل الألمانى ..

وكان عليه أن يجيبه بعبارة أخرى ..

عبارة ، طارت تمامًا من عقله ، مع الانفعال الجارف ، الذى شمل جسده كله ، من قمة رأسه ، وحتى أخمص قدميه ، ثم لم تلبث أن وثبت إلى ذهنه ، لتتجمد بضع لحظات على لسانه ، وهو يستجمع شجاعته ؛ ليقول بكلمات مرتجفة :

- لأن الأسماء تميل إلى البيات الشتوى ، فى فصل الربيع .

كانت عبارة غير منطقية أخرى ، لو سمعها أى شخص ، لتصور أنها حوار بين اثنين من المعتوهين ، ولكن ذلك

الرجل ، الجالس على المقعد المجاور ، والذى بدا وكأنه منهمك فى مطالعة صحيفته اليومية ، شعر بارتياح شديد لسماعها ، فنهض من مقعده ، وطوى صحيفته ، ثم ألقاها إلى جوار (ماجور) ، بحركة بدت عفوية تمامًا ، وكأنما انتهى من مطالعتها ، ولم تعد به حاجة إليها ، وانصرف فى خطوات هادئة متماسكة ..

وازدرد (ماجور) لعابه فى صعوبة ، وأصابعه المرتجفة تتسلّل إلى الصحيفة الملقاة جانبه فى حذر ، ثم تلتقط من بين طياتها علبة صغيرة ، من البلاستيك القوى ، أسرع يدسها فى جيب معطفه ، قبل أن ينهض بدوره ، مستعدًا للانصراف ..

وعلى الرغم من أوامر الميجور (كلارك) المشدَّدة ، وتأكيداته على حتمية الانصراف مباشرة ، بعد الحصول على تلك العلبة ، وعدم متابعة الرجل الآخر ، مهما كانت الأسباب ، عجزت طبيعة (ماجور) الصحفية عن مقاومة الفضول الشديد ، فأدار عينيه فى حذر ؛ ليتابع ذلك العميل الألمانى ، وهو يبتعد عن المكان ، بعد أن أدى دوره فى اللعبة ، و ...

وفجأة ، توقَّفت سيارة سوداء كبيرة ، على مسافة متر واحد من ذلك العميل الألمانى ، وقفز منها رجلان ضخما الجثة ، انقضا عليه مباشرة ، دون أن يباليا بالمارة ، أو حتى برجل الشرطة ، الذى يقف لتنظيم حركة السير ، على مسافة أمتار قليلة منهما ..

ومن الواضح أنها كانت مفاجأة عنيفة للعميل الألمانى ؛ فقد تجمَّد فى مكانه لحظة ، وانطلقت من حلقه شهقة قوية ، قبل أن يدور على عقبيه ، ويعدو كالصاروخ ، وهو يُطلق صرخات قصيرة متقطعة ..

ودون أن يضيعا لحظة واحدة ، انطلق الضخمان خلفه ، فى مشهد رهيب ، ارتجف له جسد (ماجور) ، وهو يتراجع فى توتر عصبى ، وعقله يسترجع كلمات الميجور (كلارك) الأخيرة :

ـ مهما حدث ، ومهما تغيَّرت الأمور ، أو تعقَّدت الأحداث ، احرص على ألا تفقد تلك العلبة أبدًا .. إنها تحوى مستقبل (بريطانيا) ، وربما مستقبل (أوروبا) كلها .

ومع الكلمات ، التى استعادها ذهنه فى لحظة واحدة ، استدار (ماجور) ؛ لكى يبتعد عن المكان بأقصى سرعته ..

ولكن هيهات .. ففى نفس اللحظة ، التى استدار فيها ، وقع بصره على رجلين آخرين ، لهما الملامح الآرية نفسها ، يتجهان نحوه من الرصيف المقابل ، وعيونهما مركَّزة عليه تمامًا ..

وهنا تجمَّدت كل ذرة فى كيان (آيان ماجور) ..

تجمَّدت تمامًا ..

* * *

٤ـ الأشــرار ..

● منذ التحاقه بالمخابرات البريطانية ، قبل ما يقرب من سبع سنوات ، من اندلاع الحرب العالمية الثانية ، اشتهر الميجور (كلارك) بهدوء أسطورى ، فى أحلك المواقف ، وبقدرة مدهشة على التماسك ، وحسن إدارة الأمور ، مهما تعقدت الأحداث ، أو تجاوز الخطر كل الحدود .

ولكن فى هذه العملية بالذات ، بدا الميجور (كلارك) مختلفًا ..

لقد انتقى الصحفى المغمور (آيان ماجور) بنفسه ؛ للقيام بهذه المهمة الخاصة فى (برن) ، وتولى عملية تدريبه السريعة ، ولقَّنه كل ما يحتاج إلى معرفته ، للقيام بدوره على أكمل وجه ، وعلى الرغم من هذا ، فقد بدا قلقًا أكثر مما ينبغى ، وهو ينتظر الأخبار من (سويسرا) ..

وعندما استدعاه مدير المخابرات البريطانية (فنرز) إلى مكتبه ، كان يبدو شاحبًا إلى حد ما ، حتى إنه سأله فى قلق :

ـ ماذا هناك بالضبط يا (كلارك) ؟! كنت أتصوَّر أنك واثق تمامًا من نجاح خطتك !

جلس (كلارك) على أقرب مقعد إليه ، دون أن يستأذن

رئيسه ، على عكس المألوف فى النظم البريطانية ، ولوَّح بكفه ، قائلاً :

- ليس لدى أدنى شك ، فى أن (ماجور) سيقوم بواجبه على خير وجه ، على الرغم مما يتصوره عنه الجميع ، فلم يحدث قط أن أخطأت فى تقييم شخص ما ، مهما كانت مظاهر شخصيته المعلنة .

سأله (فنرز) فى قلق :

- ماذا الذى أصابك بالشحوب إذن ؟!

تنهد (كلارك) فى عمق ، وبذل جهده للسيطرة على مشاعره ، وهو يقول :

- الأخبار الواردة من (برن) ليست مطمئنة .

تضاعف قلق (فنرز) ، وهو يسأله :

- أية أخبار ؟!

أجاب (كلارك) ، وهو يفكر فى عمق :

- ملحقنا العسكرى هناك رصد نشاطًا يفوق المعتاد ، لرجال المخابرات الألمانية هناك ، ولقد تعرَّف بالفعل أحد ضباطهم ، والذى يتميَّز بقسوة لا مثيل لها ، فى التعامل مع كل من هو ليس ألمانيًا .

سأله (فنرز) ، وقد تحوَّل قلقه إلى توتر :

- أيهم ؟!

تطلَّع إليه (كلارك) مباشرة ، وفرك ذقنه بسبَّابته ، فى محاولة للسيطرة على انفعاله ، وهو يجيب فى اقتضاب :

- (إيخمان) .

واتسعت عينا (فنرز) عن آخرهما ..

ففى تلك الفترة ، من تاريخ صراع الجاسوسية ، كان (هينريش إيخمان) واحدًا من أشهر رجال المخابرات الألمانية ، وأكثرهم قسوة وشراسة ، وأخبار المذابح الرهيبة ، التى ارتكبها فى (بولندا) ، ما زالت تزكم الأنوف ، وتضفى عليه شهرة وحشية ، كافية لتجميد الدماء فى العروق ..

الدماء غير الآرية بالطبع ..

وظهور (إيخمان) ، فى وقت كهذا ، فى قلب (برن) ، كان مؤشرًا لا يمكن إهماله ؛ لذا فقد تساءل (فنرز) ، وعقله يستعيد فى ذعر تلك العملية الألمانية فى (فنلو) ، والتى أطاحت بسلفه السابق سير (هوج سنكلير) :

- تُرى ما الذى يعنيه هذا ؟!

هزّ (كلارك) رأسه ، قائلاً :

ـ هذا هو السؤال ، الذى ألقيه على نفسى ، منذ وصلنى الخبر .

وصمت لحظة ، ثم لوّح بكفه ، مستطردًا :

ـ إننى مستعد لدفع نصف عمرى ، لأعلم ما الذى يحدث هناك الآن .. فى (برن) ..

وكان هذا هو السؤال الحقيقى ، فى تلك اللحظة ..

تُرى ما الذى يحدث هناك ؟!

فى (برن) ..

★ ★ ★

لثوان ، تجمّد (ماجور) فى مكانه ، من فرط الرعب ، وهو يحدّق فى رجلى المخابرات الألمانيين ، اللذين انحفرت الصرامة والوحشية على ملامحهما ، وهما ينقضان عليه ، وكل منهما يهم بسحب مسدسه من معطفه ، فى حركة بدت مخيفة للغاية ، بالنسبة لمدنى مثله ..

ثم فجأة ، امتلأ عقله بعبارة واحدة ..

عبارة تحمل صوت الميجور (كلارك) ، ترددت قوية حازمة حاسمة فى أعمق أعماق رأسه ..

بل فى كل ذرة من كيانه ..

« احرص على ألا تفقد تلك العلبة أبدًا .. إنها تحوى مستقبل (بريطانيا) ، وربما مستقبل (أوروبا) كلها .. »

ومع تردُّد الكلمات فى ذهنه ، تفجّرت فى جسده كله طاقة هائلة ، انطلقت من بين شفتيه ، فى شكل صرخة قوية :

ـ لا ..

ثم اندفع فجأة نحو رجلى المخابرات الألمانيين ، ودفع أحدهما بكل ما تفجّر فى عروقه من طاقة وانفعال ، مستطرداً :

ـ لن تظفروا بى أبدًا .

كانت مبادرة مفاجئة وغير متوقّعة ، حتى إن الرجلين لم يستعدا لها لحظة واحدة ؛ لذا فقد اختلّ توازن ذلك الذى دفعه (ماجور) ، واصطدم بزميله ، وتعلّق بمعطفه بحركة غريزية ، ليسقط كلاهما أرضًا ؛ فى حركة بدت أشبه بما يحدث فى الأفلام الهزلية ..

ولكن (ماجور) لم ير ما حدث أبدًا ..

فحتى قبل أن يتأكد من سقوط الرجلين ، وثب يتجاوزهما ، ثم أطلق لساقيه الرياح ..

وأمام عشرات المارة ، فى قلب أشهر شوارع برن ، راح يجرى ، ويجرى ، ويجرى ، وكأنما تطارده فرقة من شياطين الجحيم ..

أما رجلا المخابرات الألمانيان ، فقد هبا من سقطتهما فى سرعة ، وبمرونة صنعتها تدريباتهما الطويلة الشاقة ، ثم انطلقا خلفه ، دون أن ينبس أحدهما بحرف واحد ..

وكانت مطاردة عجيبة مدهشة ، فى قلب العاصمة السويسرية ، التى اعتادت الهدوء والرصانة ، طوال تاريخها الطويل ..

رجل يجرى مذعورًا ، وآخران يطاردانه بوجهين حملا كل شر وشراسة الدنيا ..

ولقد أثبتت تلك المطاردة خلال لحظاتها الأولى ، أن الرعب هو أقوى طاقة عرفها الجسد البشرى ..

فعلى الرغم من اللياقة البدنية العالية ، التى يتميَّز بها رجال المخابرات الألمانية ، كان (ماجور) يفوقهما سرعة وخفة ، حتى إنهما عجزا عن اللحاق به ، طوال الدقائق الخمس الأولى ..

ثم ظهرت فائدة التدريبات الشاقة المنتظمة ..

فبسرعة ، تلاحقت أنفاس (ماجور) ، وتقطعت ، وبلغت نبضات قلبه حدًا لم تبلغه من قبل قط ، حتى خُيِّل إليه أن قلبه سيتمزق بين ضلوعه ، وينفجر فى أعماق صدره ..

أما ساقاه ، فسرى فيهما خدر عجيب ، وكأنما فقدتا اتصالهما بمخه ، وصارتا كيانًا مستقلاً ، متخاذلاً ، يوشك على الانهيار ..

ولكل هذا ، راحت المسافة بينه وبين رجلى المخابرات الألمانيين تقلّ ..

وتقلّ .. وتقلّ ..

وعند لحظة ما ، أدرك (ماجور) أنه سيقع فى قبضتيهما لا محالة ..

وأنه سيفقد حتمًا تلك العلبة البلاستيكية ..

العلبة التى تحوى مستقبل (بريطانيا) .. أو مستقبل (أوروبا) كلها ..

وكمحاولة أخيرة ، انحرف (ماجور) فى شارع جانبى ضيق ، أملاً فى أن يجد وسيلة للفرار ، و ...

وتجمّدت الدماء فى عروقه دفعة واحدة .

فذلك الشارع الجانبى الضيق ، الذى انحرف إليه ، لم يكن له أى مخرج آخر ..

بل كان مغلقًا تمامًا عند نهايته ، ولا يحوى سوى بابين خلفيين مغلقين ، إلى جوار كل منهما صندوق قمامة معدنى كبير ..

وبقلب مرتجف ، وأنفاس متقطعة ، ويأس بلا حدود ، استدار (ماجور) يواجه خصميه ، اللذين توقفا على مسافة أمتار ثلاثة منه ، وأحدهما يصوِّب إليه مسدسًا ضخمًا ألمانى الصنع ..

وفى تلك اللحظة ، أدرك (ماجور) أنها النهاية ..

نهايته .

* * *

٥ ـ سفّاح وارسو ..

● ارتجفت كل ذرة فى كيان ذلك العميل الألمانى ، الذى يعمل لحساب المخابرات البريطانية ، عندما دفعه رجال المخابرات النازية ، داخل قبو صغير ، فى قلب العاصمة السويسرية (برن) ، ولوَّح بذراعيه فى رعب شديد ، وهو يهتف :

ـ إننى لم أفعل شيئًا .. لم أفعل شيئًا .

زمجر أحد رجال المخابرات الألمانية فى وجهه ، وهو يقول فى وحشية :

ـ اصمت .

أطبق الرجل شفتيه فى رعب ، وراح يرتجف فى شدة ، وهو يُحدِّق فى الرجال الثلاثة ، الذين امتلأ القبو بضخامتهم ، والذين وقفوا أمامه مشدودى القامة ، على نحو رهيب مخيف ، تطل من عيونهم صرامة وحشية ، أنبأته بمصيره الحتمى بين أيديهم ، و ...

« إننا نعرف ما فعلته بالضبط .. »

أتى الصوت الصارم الغليظ ، من خلفه مباشرة هذه المرة ، فاستدار إلى مصدره بكل الرعب ، وتطلَّع مرتجفًا إلى شخص ما ، يختفى جسده ووجهه فى ذلك الركن المظلم ، فى نهاية القبو ، ويواصل بنفس الصرامة :

ـ الواقع أننا قد أتينا إلى هنا من أجلك .

بدا الصوت مألوفًا ، فى أذنى العميل الألمانى ، الذى حدَّق فى ذلك الركن المظلم ، وجسده كله يرتجف ؛ ليتابع حركة ذلك الشخص ، الذى تحرَّك تجاهه ، متجاوزًا الركن المظلم ، مع متابعته :

ـ وسنعود بك حيًّا إلى (برلين) .

مع الكلمة الأخيرة ، سقط ضوء مصباح القبو الخافت على وجه الرجل ، الذى لم يكد العميل يتبين ملامحه ، حتى انتفض جسده كله بمنتهى العنف ، كما لو أن صاعقة قوية قد هوت على رأسه ، فى ليلة ممطرة ، دون سابق إنذار ، وهو يشهق هاتفًا :

ـ هر (إيخمان) .

ابتسم ضابط المخابرات الألمانى ، صاحب المذابح الدموية الرهيبة ، وكأنما أسعده ذلك التأثير ، الذى صنعته رؤيته فى العميل ، وقال فى هدوء مخيف :

ـ إذن فقد تعارفنا .. عظيم .. هذا سيجعل الأمور أيسر كثيرًا .

ثم أشار إلى أحد رجال المخابرات الألمانية ، فجذب العميل فى قسوة ، ودفعه نحو مقعد خشبى ملاصق لجدار القبو ، ثم أجلسه عليه فى غلظة ، فى حين تابع (إيخمان) ، وهو ينزع قفازيه فى هدوء :

ـ إننا نعلم منذ فترة أنك جاسوس للبريطانيين ، ولدينا معلومات تشير إلى أنك هنا للقيام بعمل ما لحسابهم ، ولكننا لم نكن نعرف ما تنوى فعله بالضبط ؛ لذا فقد سمحنا لك بالقدوم إلى هنا ، وراقبناك جيدًا ، حتى علمنا أنك قد سلمت شيئًا ما إلى أحد مندوبى المخابرات البريطانية .

ثم مال نحوه فجأة ، قائلاً بكل الصرامة والقسوة :

ـ ما الذى منحته للبريطانيين بالضبط ؟!

قال العميل فى عصبية :

ـ لم أمنحهم شيئًا .. إنكم واهمون .. لقد ..

اعتدل (إيخمان) بحركة حادة ، وهو يقول فى وحشية :

ـ إننى أكره من يهين ذكائى .

وحتى قبل أن تكتمل عبارته ، هوى أحد رجال المخابرات الألمانية بلكمة كالقنبلة ، على أنف العميل الألمانى ، فحطَّمه على نحو عنيف ، وتفجَّرت منه الدماء فى قوة ، مع الصرخة العالية ، التى أطلقها العميل ، الذى حاول رفع يديه ، لمنع الدماء التى تنزف من أنفه المحطَّم ، ولكنه تلقى لكمة ثانية فى أسنانه مباشرة ، فشعر بمذاق الدم على لسانه ، وابتلع سنًّا مكسورةً ، قبل أن يتمالك نفسه ، ودارت الدنيا كلها به ، وازداد القبو إظلامًا وبدا له صوت (إيخمان) القاسى الوحشى مشوَّشًا ، وهو يقول :

ـ ما الذى منحته للبريطانيين ؟!

أجاب العميل ، وقد فقد قدرة عقله على التركيز :

ـ ميكروفيلم .

انعقد حاجبا (إيخمان) فى شدة ، وهو يسأله فى حدة :

ـ وما الذى يحويه ؟!

كانت الدماء تتناثر من أنف العميل وفمه ، وهو يجيب فى مرارة وانهيار ، وقد أدرك المصير الرهيب البشع ، الذى ينتظره على يد ذلك السفاح ، الذى ما زالت قصص مذابحه فى (وارسو) تكير الرءوس وتحبس الأنفاس ، فى (أوروبا) كلها :

ـ قائمة أسماء وصور .

ازداد انعقاد حاجبى (إيخمان) ، وهو يسأل ، وقد تضاعفت نبرة الوحشية والشراسة فى صوته :

ـ أيَّة أسماء وأيَّة صور ؟!

دسَّ العميل يده فى جيبه ، وهو يقول فى انهيار :

ـ لدى نسخة منها فى جيبى هنا .

وقبل أن يدرك أحدهما ما ينتويه ، رفع العميل يده ، من جيبه إلى فمه ، الذى ألقى فيه كبسولة صغيرة ، رصدتها عيونهم جميعًا ، فصاح (إيخمان) فى حدة :

ـ أوقفوه .

اندفع رجال المخابرات الألمانية ، محاولين استعادة الكبسولة ، من فم العميل ، إلا أنه ضغطها بأسنانه فى سرعة ، قبل أن تتسع عيناه عن آخرهما ، وتنطلق من حلقه شهقة مكتومة مميَّزة ، ثم يسقط رأسه على صدره ..

وفى غضب عارم ، صاح (إيخمان) :

ـ ياللوغد !

قالها ، وهو يصفع جثة العميل فى قوة ، قبل أن يرفع عينيه إلى رجال المخابرات ، قائلاً فى غضب وحشى :

- خطأ .. كان ينبغى تفتيشه جيِّدًا ، قبل خضوعه للاستجواب .. إنها فضيحة ، أن ينتحر جاسوس أمامنا ، بكبسولة من سم السيانيد ، دون أن نملك منعه .

غمغم أحد الرجال :

- لا بد أن المخابرات البريطانية قد منحته إياها .

هتف (إيخمان) فى غضب :

- هذا ليس عذرًا .

ثم لوَّح بذراعه ، مستطردًا فى حدة :

- أنا واثق من أنه كان يخدعنا ، ولكن عليكم تفتيشه جيِّدًا ، فإن لم يكن يحمل نسخة من تلك القائمة ، فلن يصبح أمامنا سوى اصطياد ذلك المندوب البريطانى ، واستعادة الميكروفيلم منه .

ثم انعقد حاجباه ، فى هيئة مخيفة للغاية ، وهو يضيف :

- وبأى ثمن ..

* * *

« ماذا يحدث هنا بالضبط ؟! »

انطلق هتاف ذلك الشرطى السويسرى فجأة ، فى اللحظة التى تصوَّر فيها (ماجور) أن نهايته قد حانت ، فالتفت إليه رجلا المخابرات الألمانيين بحركة حادة ، ولكنه لم يكد يلمح ذلك المسدس الضخم ، فى يد أحدهما ، حتى سحب مسدسه فى سرعة ، هاتفًا :

- يا إلهى !

ولم يدر (ماجور) بعدها كيف فعل ما فعله ، داخل ذلك الشارع المسدود ، فى العاصمة السويسرية ..

ففى نفس اللحظة ، التى استدار فيها الألمانيان إلى الشرطى ، التقط (ماجور) غطاء أحد صناديق القمامة المعدنية ، وهوى به على رأس أحدهما ، بكل ما يملك من قوة فى الثانية ذاتها ، التى بادر فيها الثانى ذلك الشرطى السويسرى برصاصة من مسدسه ، المزوَّد بكاتم للصوت ، اخترقت صدره مباشرة ، حتى قبل أن يكمل سحب مسدسه ..

وعندما التفت إليه الألمانى الثانى ، إثر سماعه آهة الألم ، التى انطلقت من بين شفتى زميله ، انقض عليه (ماجور) ، بكل ما يعتمل فى أعماقه من توتر وانفعال ، وهو يرفع الغطاء المعدنى أمامه ، وكأنه يحتمى به ..

وأطلق رجل المخابرات الألمانى رصاصة صامتة ثانية ، اخترقت الغطاء المعدنى ، ومرقت على مسافة سنتيمتر واحد من رأس (ماجور) ، الذى حاول أن يضربه بالغطاء ، كما فعل مع زميله ، إلا أن الألمانى المحترف وثب جانبًا فى خفة ، وركل الغطاء من يد الصحفى ، فأطاح به جانبًا ، قبل أن يصوِّب إليه مسدسه الضخم ، فى غضب شرس ، مطلقًا سبابًا ألمانيًا ، لم يفهم (ماجور) حرفًا واحدًا منه ، وإن أدرك معه أنه قد خسر فرصته فى النجاة ..

فرصته الوحيدة ..

والأخيرة .

★ ★ ★

٦ ـ من ثقب إبرة ..

● كل شىء ، فى ذلك الشارع الصغير المسدود ، فى قلب العاصمة السويسرية (برن) ، كان يوحى بأن المخابرات الألمانية قد ربحت تلك المعركة ..

وأن نهاية (آيان ماجور) ، الصحفى البريطانى المغمور ، قد حانت ..

والواقع أن رجل المخابرات الألمانى ، الذى يصوِّب إليه مسدسه ، لم يكن ليتورَّع لحظة واحدة ، عن إطلاق رصاصاته على رأسه مباشرة ، حتى يستعيد تلك العلبة البلاستيكية ، التى أعطاه إياها ذلك العميل الألمانى ، الذى يعمل لحساب المخابرات البريطانية ..

ولقد جفَّ حلق (ماجور) بالفعل ، وتصلَّبت أطرافه ، واتسعت عيناه فى رعب شديد ، وهو يحدِّق فى فوهة المسدَّس ، المصوَّبة إليه ..

ثم سمع دوى الرصاصة ..

وانتفض جسده كله بمنتهى القوة ، وهو يغلق عينيه فى ألم ، و ...

ولكنه انتبه فجأة إلى أمر ما ..

إنه لا يشعر فعليًا بأى ألم ..

ثم إن مسدس ذلك الألمانى مزوَّد بكاتم للصوت ، ومن المستحيل أن يصدر عنه هذا الدوى القوى ..

لذا فقد فتح (ماجور) عينيه مرة أخرى ، وحدَّق فى وجه ذلك الألمانى ، الذى تغيَّرت ملامحه على نحو عجيب ، فتحجَّرت عيناه ، وضاقتا ، وانفرجت شفتاه عن أسنان تلاصقت فى قوة ، قبل أن تظهر بقعة دم كبيرة ، على ذلك الجزء من صدره ، الذى لا يخفيه معطفه ..

ثم سقط الألمانى فجأة ..

سقط كالحجر ، ليرتطم بالأرض فى قوة ، عند قدمى (ماجور) ، الذى تراجع فى حركة حادة ، وهو يحدِّق فى ذلك الشرطى السويسرى ، المصاب برصاصة فى صدره ، والذى ما زال يرقد أرضًا ، ومسدسه مشهور أمامه ، والدخان يتصاعد من فوهته ..

وقبل أن يطلق (ماجور) صيحة فرح بنجاته ، سمع من خلفه صوت الألمانى الثانى ، وهو ينهض من سقطته ، مغمغمًا بعبارة ألمانية ساخطة ، ورأى الشرطى يصوِّب مسدسه فى تداع إلى الألمانى الثانى ..

ولم ينتظر (ماجور) ؛ ليعرف نتيجة تلك المواجهة الجديدة ..

لقد استنفر كل ما تبقَّى له من قوة ؛ ليثب إلى الأمام ، ثم يطلق لساقيه الرياح مرة أخرى ..

وقبل أن يبلغ مدخل ذلك الشارع المسدوَد ، سمع من خلفه صوتًا مكتومًا ، تفجَّر بعده رأس الشرطى السويسرى ، وارتطم وجهه بالأرض ، مع تناثر الدماء منه فى قوة ..

وانحنى (ماجور) بحركة غريزية ، وكأنما يحمى رأسه من رصاصة وهمية ، ودفع كل رعبه وهلعه إلى ساقيه ؛ ليقفز قفزة طويلة ، أوصلته إلى مدخل الشارع ، فى نفس اللحظة التى أكمل فيها الألمانى نهوضه ، وأطلق رصاصة أخرى نحوه ..

ومع دوران (ماجور) حول نهاية الشارع ، للانطلاق فى الشارع الرئيسى ، شعر بالرصاصة الصامتة ، التى ارتطمت بحافة الجدار ، فزاد من سرعته ، وراح يجرى عرضيًا ، لبلوغ الجانب الآخر من الشارع ..

ومن خلفه انطلق الألمانى .. وبأقصى سرعته ..

ولم يدر (ماجور) لحظتها ماذا يفعل ، وكيف يمكن أن يفلت من مطارد شرس كهذا ، وارتجفت كل ذرة من جسده ،

وهو يبحث بعينيه عن وسيلة للنجاة ، أو حتى عن أى شرطى سويسرى آخر ، جذبه دوى الرصاصة ، التى أطلقها الشرطى الصريع ..

ولكن قلبه ارتجف بقوة .. بمنتهى العنف والقوة ..

فعبر الطريق الرئيسى ، كان الألمانيان ، اللذان اختطفا العميل ، من موقع اللقاء ، يعدوان نحوه مباشرة ، فى نفس اللحظة التى اندفع فيها زميلهما ، من الشارع المسدود ، وانطلق خلفه ..

وكان هذا يعنى أنه قد صار محاصرًا من الجانبين ، ولم يعد لديه سبيل للفرار ..

أى سبيل ..

★ ★ ★

« الألمان يطاردون رجلنا فى (برن) .. »

نطق الميجور (كلارك) العبارة ، فى توتر ملحوظ ، حطَّم هدوءه الأسطورى الشهير ، وهو يدلف إلى حجرة مديره (فنرز) ، الذى تجمَّد على مقعده ، وهو يقول :

- هل تعنى أن العملية قد فشلت ؟!

هزَّ (كلارك) رأسه فى قوة ، قائلاً :

- ليس بعد .

قال (فنرز) فى عصبية :

- ألم تقل : إن الألمان يطاردونه ؟!

أشار (كلارك) بيده ، وهو يقول فى حزم :

- ولكنهم لم يظفروا به بعد .

لوَّح (فنرز) بذراعيه ، قائلاً :

- إنها مسألة وقت فحسب .. إنه مجرَّد صحفى ، وهم مجموعة من الوحوش المحترفة ، وما داموا قد كشفوا هويته ، فهذا يعنى أنه هالك لا محالة .

انعقد حاجبى (كلارك) ، وهو يقول :

- دعنا لا نسبق الأحداث يا سيِّدى .

هتف (فنرز) فى حدة :

- أية أحداث ؟! إنها قواعد اللعبة يا ميجور (كلارك) .. لوحة الشطرنج التقليدية ، التى نحرك جميعًا قطعًا عليها ليل نهار بلا انقطاع .. رجل واحد ، تدرَّب لثلاثة أيام ، فى مواجهة

جيش نجهل عدده من المحترفين .. ما النتيجـة المتوقعة ، لو طرحنا المعادلة أمام فريق محترفينا وخبرائنا ؟!

ازداد انعقاد حاجبى (كلارك) ، وهو يقول :

ـ ما زلت أصر على ألا نسبق الأحداث .

وصمت لحظة ، قبل أن يضيف فى حزم :

ـ وأن نقوم بكل ما يمكننا ، لمساعدة رجلنا .

اعتدل (فنرز) على مكتبه ، وهو يقول فى توتر :

ـ وما الذى يمكن أن نفعله ، من موقعنا هنا ؟!

التقط (كلارك) نفسًا عميقًا ، وهو يجيب :

ـ كل ما بوسعنا يا سيِّدى .. كل ما بوسعنا .

كانت العبارة مبهمة تمامًا ، إلا أن امتزاجها بنظرة الحزم والعزم ، المطلَّة من عينيه ، جعلها توحى بالكثير .. الكثير جدًّا ..

* * *

فى مصيدة كالتى وجد (آيان ماجور) نفسـه فيها ، فى وسط شوارع (برن) ، لم يكن أمامه سوى مخرج واحد ..

ولقد لجأ إليه دون تردُّد ..

فمع عجزه عن المضى أمامًا أو خلفًا ، انطلق (ماجور) نحو أقرب بناية إليه ، وعبر مدخلها ، ليختفى داخلها ، أمام عيون رجال المخابرات الألمانية ، الذين ينقضون عليه من الجانبين ..

والتقى الجانبان عند مدخل البنايـة نفسـها ، وهتف أحد القادمين الجديدين :

ـ أين (هانز) ؟!

دس الألمانى الأوَّل مسدسه فى معطفه ، حتى لا يجذب انتباه المارة ، وهو يجيب فى صرامة :

ـ لقد لقى مصرعه .. قتله شرطى سويسرى ، قبل أن أقتله برصاصاتى .

أشار القادم بيده فى حزم ، وهـو يقول ، متجاهلاً تمامًا مصرع زميلهم :

ـ الهر (إيخمان) يريد ذلك الشخص بأى ثمن .. لقد سلَّمه الجاسوس ميكرو فيلمًا ، لا بد أن نستعيده منه .

قال الأوَّل فى صرامة :

ـ نعم .. لقد رأيت ما أخفاه فى صحيفته ، وما التقطه ذلك الشخص .. إنها علبة من البلاستيك القوى .. لا بد وأن الميكروفيلم داخلها .

مطَّ القادم شفتيه ، وسأله الأوَّل :

ـ أيوجد مخرج آخر لهذه البناية ؟!

أجابه الأوَّل فى حزم :

ـ هذا هو المدخل الوحيد ، ولن يكون أمامه إلا أن يتحوَّل إلى خيط دقيق ، حتى يخرج من ثقب الإبرة ، الذى سنتركه أمامه .

قالها ، قبل أن يقف زميله الثالث لحراسة المدخل الوحيد للبناية ، ثم يدخل هو والقادم إليها ، بحثًا عن الهدف .. عن (ماجور) .

* * *

٧ ـ الحصار ..

● على الرغم من أن عملية الصحفى المغمور (آيان ماجور) فى (برن) ، لم تستغرق سوى أقل من ساعة واحدة ، إلا أن ملفها كان يحوى الكثير من التفاصيل ، وبالذات تلك الخاصة بما دار فى قلب المخابرات البريطانية نفسها ، أثناء تنفيذ العملية فى (سويسرا) ..

فلأول مرة ، منذ احتلَّ منصبه ، غادر مدير المخابرات (فنرز) مكتبه ، واتجه إلى مكتب مرءوسه الميجور (كلارك) ، ليسأله فى توتر :

ـ هل فعلت شيئًا ، بشأن عملية (برن) ؟!

أجابه (كلارك) فى سرعة ، وكأنما ينتظر هذا السؤال بالتحديد .

ـ رجال سفارتنا فى (برن) أبلغوا السلطات هناك ، بأن الألمان يطاردون أحد مواطنينا ، فى عاصمة دولة (سويسرا) المحايدة .

قال (فنرز) فى عصبية :

ـ وهل تعتقد أن السويسريين سيتحركون لمساعدة رجلنا ؟!

أنت تعرف ما يفعلونه ، فى مثل هذه الأمور .. إنهم يتجاهلون الموقف تمامًا ، أو يتباطئون بقدر الإمكان ، قبل أن يتحركوا رسميًا ، حتى لا يوقعوا أنفسهم فى أية مشكلات ، مع أى طرف من طرفى النزاع .

أومأ (كلارك) برأسه إيجابًا ، وقال فى حزم :

ـ أعلم هذا جيدًا يا سيدى ، ولكن إبلاغهم رسميًا يرفع عنا الحرج فيما بعد ، عندما يبدأ دورنا .

سأله (فنرز) فى قلق :

ـ أى دور .

انعقد حاجبا (كلارك) فى شدة ، وهو يقول فى صرامة :

ـ الألمان تجاوزوا كل الحدود كعادتهم ، ويلعبون بأوراق مكشوفة .

ونهض واقفًا ، وهو يضيف بمنتهى الصرامة :

ـ وسنلعب نحن أيضًا بأوراق مكشوفة ..

وكان يعنى كل كلمة مما قاله ..

بل كل حرف ..

* * *

تحرك رجلا المخابرات الألمانيان داخل تلك البناية ، التى اختفى داخلها (آيان ماجور) فى مهارة وحرفية بلا حدود ..

فمع وجود زميلهما الثالث عند المدخل الوحيد للبناية ، صعدا معًا إلى طابقيها الوحيدين ، وطرقا الأبواب دون تردد ، واقتحما المنازل ، وهما يعلنا ، بلغة سويسرية سليمة ، أنهما من رجال الأمن السويسرى ، وأن مهمتهما هى البحث عن مجرم هارب ..

ولقد استغرقت عملية التفتيش الدقيقة وقتًا قصيرًا ، مع الحرفية الشديدة ، التى تمت بها ..

ولم يكن هناك أى أثر للصحفى البريطانى ..

وهذا يعنى أنه لم يتبق سوى مكان واحد ..

القبو ..

وبمنتهى الحزم والحسم ، اقتحما القبو معًا ..

كان قبوًا قديمًا ، رطبًا ، تسللت المياه إلى أرضيته ، فأغرقتها بطبقة ترتفع سنتيمترات ثلاثة على الأقل ..

وبالذات عند المدخل ، الذى ينخفض منسوبه بعدة سنتيمترات عن الجزء الخلفى للقبو ..

وفور دخول الرجلين ، ودون أن يبذلا أدنى جهد ، وجدا (ماجور) أمامهما تمامًا ..

كان يقف عند نهاية القبو ، كالفأر فى المصيدة ، متطلعًا إليهما مباشرة ، وكأنما أدرك أنه ليس أمامه فرصة واحدة فى النجاح ..

وتألقت عينا رجلى المخابرات النازية ، وأحدهما يصوِّب مسدسه إلى (ماجور) ، قائلاً فى صرامة متغطرسة ، وبلغة إنجليزية سليمة :

ـ انتهت اللعبة أيها البريطانى .. لم يعد أمامك سبيل للفرار .

وقال الثانى فى غلظة :

ـ أعطنا تلك العلبة البلاستيكية ، التى أعطاك إياها جاسوسكم الحقير .

سألهما (ماجور) ، فى توتر حقيقى :

ـ هل ستقتلانى ؟!

تبادلا نظرة ساخرة ، تحمل استهتارًا بذلك الغر الساذج ، الذى يجهل كل شىء عن عالم الجاسوسية الرهيب ، قبل أن يقول أحدهما ، فى شراسة قاسية :

ـ ليس قبل أن تعطينا العلبة .

تنهد (ماجور) فى ارتياح أدهشهما ، وهو يقول :

ـ آه .. هذا ما توقعته .. إنكما تخشيان أن أكون قد أخفيتها فى مكان ما .

أطلت صرامتهما من عيونهما ، واشتركت مع ملامحهما الشرسة ، لتمنحهما مظهرًا شيطانيًا ، دون أن يجيب أحدهما بحرف واحد ، وإن صوَّب الثانى مسدسه بدوره إلى الصحفى الذى تابع فى سرعة :

ـ وهذا يجعل لحياتى ثمنًا بالتأكيد .. على الأقل حتى يمكن تعذيبى ، وانتزاع الحقيقة منى .

قال أحدهما فى حدة :

ـ فليكن .. سأجازف بنسف رأسك ، ثم نبحث عن ذلك الميكروفيلم فيما بعد .

هزَّ (ماجور) رأسه ، ثم قال :

ـ لا داعى .. ها هو ذا .

قالها ، وألقى إليهما تلك العلبة البلاستيكية القوية فجأة ، فارتفعت عيونهما إليها بحركة غريزية ..

وفى تلك اللحظة ، تحرَّك (ماجور) ..

لقد انتزع السلك الكهربى ، الذى يغذى مصباح السقف الوحيد ، بحركة سريعة مباغتة ، وألقى بطرفه العارى نحوهما ..

ومع الظلام الدامس ، الذى ساد القبو فجأة ، عاد الرجلان بفوهتى مسدسيهما إليه ، وأطلقا رصاصة أو رصاصتين صامتتين نحوه بسرعة خاطفة ، تليق بمحترفين مثلهما ..

ولكن الطرف العارى للسلك الكهربى وقع تحت قدميهما ..

وقع وسط طبقة المياه ، التى تغمر ذلك الجزء من الأرضية ، عند مدخل القبو ..

وانتفض جسد الرجلين فى عنف ، مع التيار الكهربى القوى ، الذى سرى فى المياه إلى جسديهما ، وانقبضت سبابتاهما على زنادى المسدسين ، بتأثير الكهرباء ، التى تسرى فى كل خلية منهما ، فانطلقت رصاصاتهما الصامتة فى كل اتجاه ، وسط الظلام الدامس ..

ولقد استغرق هذا أقل من دقيقة واحدة ، قبل أن يسقط الرجلان على وجهيهما جثتين هامدتين ، ويسود الهدوء التام ..

هدوء يحمل رائحة مخيفة ..

رائحة الموت ..

أما ذلك الألمانى الثالث ، والذى وقف لحراسة المدخل ، فقد أثار كل ما حدث توتره ، مع صوت الفرقعة ، الذى أحدثه سريان التيار الكهربى ، فى المياه والأجساد ، وصوت الرصاصات المكتومة ، بغزارتها المقلقة ، مع الهرج والمرج فى البناية ، بعد أن انقطع التيار الكهربى فيها ..

لذا فقد استل الرجل مسدسه ، واتجه نحو القبو ، فى حذر زائد ، وهو ينادى زميليه ، وعيناه تحاولان اختراق الظلمة الشديدة فى الداخل ، و ...

وفجأة ، انقض عليه (ماجور) ، من قلب الظلمة ..

انقضَّ يلكمه فى معدته بكل قوته ، ثم ينفلت من جواره ، ويجرى محاولاً الفرار ، بكل ما يملك من قوة ..

وعلى الرغم من ألم اللكمة ، اعتدل الألمانى فى سرعة ، واستدار إلى (ماجور) ، الذى يندفع نحو باب البناية ..

وأطلق النار ..

وفى هذه المرة ، لم يخطئ الألمانى الهدف ..

لقد شعر (ماجور) بخيط من اللهب يخترق ظهره ، وينفذ من صدره ..

ثم تفجَّرت الدماء من بين شفتيه ..

وسقط ..

فى قلب (برن) .

★ ★ ★

٨ - البطـــل ..

● مع صحفى مدنى ، لم يخض أى قتال فعلى يومًا ، مثل (آيان ماجور) ، كان من الطبيعى أن تقعده تمامًا تلك الرصاصة ، التى اخترقت ظهره ورئته اليمنى ، ونفذت من صدره ، مع نهر من الدم ، غمر قميصه كله تقريبًا ، خلال لحظات قليلة ..

ولكن عبارات الميجور (كلارك) لم تكن قد فارقت ذهنه بعد ..

« احرص على ألا تفقد تلك العلبة أبدًا .. »

« إنها مستقبل (بريطانيا) .. »

« بل مستقبل (أوروبا) كلها .. »

وبكل ما يملك من قوة وإرادة ، هبَّ (ماجور) من سقوطه ، ووقف على قدميه ، ثم دفع نفسه دفعًا إلى الأمام ..

كان وكأنه قد فقد كل إحساسه بالألم ، ولم يعد يُفكِّر سوى فى أن يصل بحمله الثمين إلى السفارة البريطانية ..

وبأى ثمن ..

ولكن ذلك الألمانى غادر البناية خلفه ، وصوَّب إليه مسدسه مرة أخرى ..

وأطلق نحو رصاصة ثانية ..

وفى هذه المرة ، اخترقت الرصاصة فخذ (ماجور) اليسرى ..

ولكنه لم يتوقف ..

لقد انطلق يعدو ، ويعدو ، ويعدو ، والدماء تتفجَّر من جرح صدره وفخذه ، وتتناثر من بين شفتيه وأنفه ، مع لهاثه وآلامه ..

وأطلق الألمانى رصاصة ثالثة ..

ولم يعد جسد الصحفى يحتمل كل هذه الإصابات ..

لذا فقد سقط ..

سقط على وجهه وسط الطريق ، الذى امتلأ بصرخات المارة ، الذين سعوا للفرار بحياتهم ، من هذا المشهد الرهيب ، الذى لم تشهد (سويسرا) مثيلاً له من قبل ..

وفى شراسة منقطعة النظير ، ركله الألمانى فى معدته ، وهو يقول :

ـ أين الميكروفيلم ؟!

أجابه (ماجور) ، وقد بدا له أنه يلفظ أنفاسه الأخيرة :

ـ لقد ألقيته لزميليك .. سلهما .

ألصق الألمانى فوهة مسدسه فى رأسه ، غير مبال بكونه فى طريق عام ، وهو يقول فى وحشية :

ـ لست تبدو لى بالحماقة ، التى تسمح بفعل سخيف كهذا .. إنك ما زلت تحمل الميكروفيلم ، وإلا لما فعلت كل ما فعلته .

كان الرجل على حق تمامًا ، فقد انتزع (ماجور) الميكروفيلم ، من علبته البلاستيكية القوية ، قبل ثوان من دخول الألمانيين إلى القبو ، ثم ألقى إليهما بالعلبة الفارغة ، حتى يجد فرصة لصعقهما بالتيار الكهربى ..

ولقد آلمه كثيرًا أن يجد نفسه بعدها فى قبضة ذلك الألمانى ، الذى لن يتردَّد عن نسف رأسه ، والحصول على الميكروفيلم ، الذى قال عنه الميجور (كلارك) ، أنه يحوى مستقبل (أوروبا) كلها ..

وفى محاولة يائسة أخيرة ، غمغم (ماجور) ، والدماء تتناثر من بين شفتيه :

ـ لن تجرؤ على قتلى ، قبل أن ...

قاطعه صوت قاسى غليظ ، يقول بلهجة آمرة :

ـ اقتله يا رجل .

رفع (ماجور) عينيه فى صعوبة ، ووقع بصره على (إيخمان) ، الذى بدا شديد الأناقة والصرامة ، فى معطفه الألمانى الفاخر ، وهو يضيف :

ـ وسننتزع ذلك الميكروفيلم من جثته فيما بعد ..

وهنا ، استسلم (ماجور) لقدره تمامًا ، وأدرك أنها النهاية ..

النهاية بلا ريب ..

ولكن فجأة ، ظهرت تلك السيارة البيضاء الصغيرة ، التى التفت إليها (إيخمان) وضابطه بحركة حادة ، وأدار

الثانى مسدسه نحوها ، و(إيخمان) يقول فى مقت وغضب :

ـ البريطانيون .

لم يكد ينطقها ، حتى برز من نافذة السيارة رجل مسلّح ، صوّب مسدسه ، وأطلق منه رصاصتين فحسب ..

رصاصتان سريعتان ، أصابت إحداهما ذلك الألمانى ، الذى يصوِّب فوهة مسدسه إلى (ماجور) ، وأطاحت به فى عنف ، فى حين اخترقت الثانية جبهة (إيخمان) ، الذى اتسعت عيناه فى ألم ذاهل ، وكأنما لا يصدّق أن يُقدم البريطانيون على فعل مباشر جرىء إلى هذا الحد ، قبل أن يسقط على وجهه جثة هامدة ..

أما (ماجور) ، فلم يفهم تمامًا ما حدث ، حتى انتزعته أياد قوية من سقطته ، ودفعته داخل السيارة البيضاء ، التى انطلقت به مباشرة ، نحو السفارة البريطانية فى (برن) ..

وداخل مبنى السفارة ، وفى حجرة طبية مجهَّزة للطوارئ ، وبمساعدة اثنين من كبار الجراحين السويسريين ، أجريت جراحة عاجلة للصحفى (آيان ماجور) ، لإنقاذه من إصابته البالغة ..

وعندما بلغت الأخبار (لندن) ، مؤكِّدة أن الميكروفيلم قد وصل فى أمان ، استعاد الميجور (كلارك) هدوءه الأسطورى ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة واثقة ، وهو يقول :

ـ كنت واثقًا من أننى لا أخطئ الحكم على الأشخاص أبداً .

وصمت لحظة ، ثم رمق مديره بنظرة جانبية ، مضيفاً :

ـ وأنه لا ينبغى أن نسبق الأحداث ، مهما بدت الأمور .

ولكن (فنرز) لم يبال كثيرًا بالعبارة ، مع سعادته الشديدة بنجاح العملية ، التى سيثبت بها أنه أفضل من سلفه الأسطورى (هوج سنكلير) ..

ولم يعرف الألمان أبدًا ما الذى كان يحويه ذلك الميكروفيلم ، الذى أرسله الجاسوس إلى البريطانيين ، قبل

أن يلقى مصرعه ، ولكن المعلومات التى حملها كانت كافية تمامًا ، لتعيد المخابرات البريطانية بناء شبكة جاسوسية قوية ، فى قلب المجتمع النازى ، عبر مجموعة من المنشقين المدنيين والعسكريين ، كانت صاحبة الفضل فى إعادة تكوين قاعدة معلومات جديدة ، ساهمت فى النصر ، الذى أتى بعد بضع سنوات ، عندما حانت ساعة الصفر ..

ولم يمت (آيان ماجور) من جراء إصاباته ..

لقد أجريت له ثلاث عمليات جراحية ؛ لإنقاذه من إصابته ، وقضى ما يقرب من ثلاثة أشهر ، داخل مبنى السفارة البريطانية فى (برن) ، حتى يستعيد عافيته ، قبل أن يقوم الميجور (كلارك) بتدبير عملية سرية جديدة ، لإعادته إلى (لندن) ..

وفى (لندن) ، قضى (ماجور) أربعة أشهر أخرى ، دون أن يزاول عملاً منتظمًا ، أو يوزِّع مقالاته على الصحف كالمعتاد ، إذ انشغل تمامًا بتسجيل التفاصيل الدقيقة لمغامرته السويسرية ، التى بدا وكأنها قد قلبت حياته كلها رأسًا على عقب ..

لقد تخلّى تمامًا عن استهتاره المعهود ، وصار شخصًا جادًا ملتزمًا ، لا ينسى أبدًا أنه كاد يلقى مصرعه فى سبيل وطنه ، فى مغامرة رهيبة ، واجه خلالها أخطر وأشرس جهاز مخابرات ، فى ذلك الحين ..

جهاز المخابرات النازى ..

وعندما انتهى من تدوين مغامرته ، التى استغرقت فى عالم الواقع أقل من ساعة واحدة ، فوجئ (ماجور) بأن المخابرات البريطانية تمنعه تمامًا من نشر مغامرته ، وعندما احتج غاضبًا ، ربّت الميجور (كلارك) على كتفه ، وقال بابتسامة هادئة :

ـ نحن فى زمن حرب يا (ماجور) ، وهذه المعلومات تندرج تحت بند السرية المطلقة ، وستظل كذلك حتى تضع الحرب أوزارها ، وبعدها أعدك أن أمنحك حق نشر تفاصيل مغامرتك .

واكتفى (آيان ماجور) بهذا الوعد ، وراح يتابع أخبار الحرب بمنتهى اللهفة ، وكأنه ينتظر نهايتها ، ليعلن للعالم مغامرته القصيرة ..

إلا أن القدر لم يمهله ..

لقد شن (هتلر) غارات رهيبة على (لندن) ، بصاروخيه (ف ـ ١) ، و(ف ـ ٢) ، فى الأشهر الأخيرة للحرب ، سقط لها عشرات الضحايا من المدنيين والعسكريين ..

ومن بين هؤلاء الضحايا كان (آيان ماجور) نفسه ..

ولم ينشر الصحفى المسكين قصته ، ولكن نشرتها فيما بعد الوثائق البريطانية ، بعد مرور سنوات الحظر القانونية ..

وبهذا فقط ، أمكننا أن نعرف تفاصيل مغامرة (آيان ماجور) الوحيدة ، فى عالم الجاسوسية المثير ..

المغامرة السويسرية .

د . نبيل فاروق

* * *

تمت بحمد الله

روايات مصرية للجيب

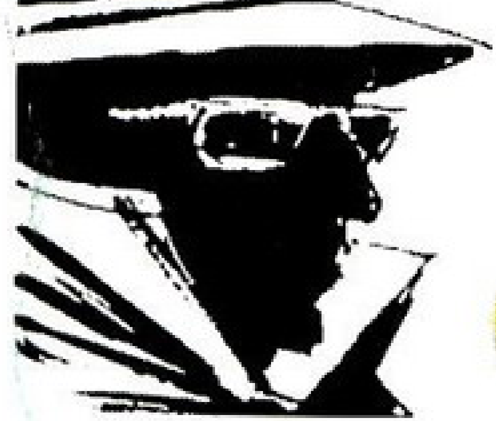




د. نبيل فاروق

صفحة

صراع العقول الذى يتفوق دومًا على أعتى الأسلحة والمعدات



الثمن فى مصر ٢٠٠ ص
ومايعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم



